

مجالس عبد الملك بن مروان النقدية

د. صابر أحمد عبد الحافظ إبراهيم

مدرس الأدب والنقد

فى كلية اللغة العربية بأسسيوط

مما لا شك فيه أن للمجالس الأدبية أثرها فى الأدب ونقده ، وبدأ
لذلك الأثر واضحا فى تلك المجالس الأدبية التى كانت تعقد بين يدى
« الخليفة الأديب » عبد الملك بن مروان » ومن ثم رغب هذا البحث
فى إبراز دور تلك المجالس فى إثراء الأدب ونقده فى تلك المدة ، حيث
كانت تنشد الأشعار وتلقاها الأدباء والنقاد بالاستحسان أو الاستهجان
حاكمين لها أو عليها معلمين لنقداتهم ومبرزين لرؤاهم من خلال نظراتهم
الأدبية والنقدية

نعم إن هناك من الأحكام فى تلك المجالس ما طبع بطابع العجلة
والارتجال ، واتسم بالايجاز جريا على طبيعة العربى الذى كان يؤثر
اللمحة الخاطفة والعبارة الوجيزة مكثفيا بطبيعة المتلقين الذين يدركون
المراد من قوله من خلال عبارته ، فهم ليسوا فى حاجة إلى الاكثار من
العلل والأسباب ، وهناك من الأحكام ما كان يجرى ارضاء لرؤساء تلك
المجالس حينما يدرك الناقد رغبتهم فى تفضيل شاعر على غيره •

ولكن هذا وذاك لا يدفعنا إلى التقليل فى شأن نقادات هؤلاء
النقاد وألا نعتد بآرائهم النقدية التى أودعوها أذواقهم الأدبية السليمة
لما لهذه الآراء من قيمة وأثر فى الأدب ونقده ، وذلك يبرز فى أمور
يمكن اجمالها فيما يلى :

١ - تعد تلك المجالس معرضا لشئون القول حيث كان الأدباء
يصورون فيها أحكامهم أيا كانت هذه الأحكام ، مرتجلة أو متأثرة
بجواطف الرؤساء أو منصفة ، فهى على كل حال هى التى أوجت إلى
العلماء والنقاد أن يخلوا إلى أنفسهم ، وأن يدرسوا الأدب وتوصفه

دراسة مستفيضة ، ويوازنوا تلك النصوص بنظائرها ويستخلصوا منها عناصر الجودة أو مظاهر الضعف ، ثم يعمدون أخيرا إلى بسط آرائهم في كتب مدونة ، وآثار محفوظة لا يزال يعتد بها الباحثون إلى اليوم ، ويعرفون منها آراءهم واتجاهاتهم في نقد الأدب وتذوقه (١) .

٢ - منها أن تلك الآراء ليست كلها على ذلك النحو الذي قد بدا مطبوعا بطابع السرعة والارتجال ، بل نجد في كثير منها الحكم الصادق المؤيد بالحجة الواضحة .

٣ - أضف إلى ذلك أنه لا ينبغي للمتعرض لتاريخ النقد الأدبي عند العرب أن يفصل تلك الحلقة الهامة من سلسلة دراسته تنتميا للمنهج التاريخي الذي يقتضى ألا يمر الدارس بفترة من الفترات ، أو بظاهرة من الظواهر من غير أن يدل عليها ، ويشير إلى قيمتها بالغة ما بلغت .

٤ - تعد تلك المجالس مظهرا من مظاهر احتفاظ القوم في تلك المدة بخصائص عروبتهم « وأهم تلك الخصائص حبهم للشعر ، وولوعهم بسحر البيان ، ودأبتهم بتذوقه ، وقدرتهم على نقده ، وتحسس جوانب الجمال فيه ، وتعرفهم إلى أسباب ضعفه أو رداءته ، بفطرتهم السليمة وحسهم المرفه .

وأنبهم في ذلك وأجدرهم بالتنويه « عبد الملك بن مروان »

(١) دراسات في نقد الأدب العربي د/ بدرى طبانة ص ١٠٠

وما بعدها ط مكتبة الأنجلو المصرية .

الذى كان وادعا بتتبع الكلام ، قادرا على أن يضع يده على مواطن
الضعف أو الخطأ فى الأتبعار» (٢) •

وفىما يلى من البحث سيكون الحديث منصبا على حياته ومجالسه
اللى كان يعقدها فبعون الله وتوفيقه نبداً •

« نشأة عبد الملك بن مروان »

أسمه ونسبه (٣) :

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن
عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن
أبى العاص بن أمية يجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص ،
وكان يضرب بأمه المثل فى الخصال الحميدة ، والصفات الكريمة ، وفيها
يقول عبد الله بن قيس الرقيات (٤) مملتها عهد عبد الملك :

أنت ابن عائشة التى	فضلت أروم نساؤها
لم تلتفت للدائنها	ومضت على عوائنها
ولدت أغر مباركا	كالشمس وسط سمائها

(٢) راجع دراسات فى نقد الأدب العربى د/ بدوى طبانة ص ١٠٠
وما بعدها •

(٣) زعماء الاسلام د/ حسن ابراهيم حسن ص ٢٢٤ - ط الثالثة
- ١٩٨٠م - مكتبة النهضة المصرية •

(٤) عبيد الله بن قيس : أحد بنى عامر بن لؤى • وانما سمي
الرقيات لأنه كان يشب بثلاث نسوة يقال لهن جميعا رقية • والشعر
والشعراء ج ١ ص ٥٤٦ ط ٣ - ١٩٧٧ •

مولده :

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة سنة ست وعشرين من الهجرة ،
فى خلافة عثمان بن عفان ونشأ نشأة عالية ، وأخذه أبوه بحفظ القرآن ،
ورواية الحديث ، وحفظ الشعر حتى برع فيه ، قضى عبد الملك
طفولته فى المدينة المنورة التى أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية ،
وتدفقت إليها الأموال وأخذ المسلمون يبنون فيها القصور ويشيدون
الدور ويحيون حياة مترفة هنيئة .

وكان أبوه مروان بن الحكم من أقرب المقربين إلى عثمان الذى
قربه إليه وأعطاه مالا كثيرا .

فى هذه البيئة المترفة شب عبد الملك ، كما يشب دسبية
بنى أمية ، وترعرع فى بحبوحة العز والترف بفضل ما حباه الله من أكرمين
لكريمين وثروة طائلة ثم قضى عثمان بن عفان نخبه وهو لم يزل فى
التسعة من عمره ، واثرت الفتنة بين أنصار على وأنصار معاوية .

غير أن مروان بن الحكم آثر أن يبتعد عن هذه الفتنة الدامية
فاعتزل السياسة بعد موقعة الجمل ، وباع عليا وأقام بالمدينة ، وظل
على ذلك حتى آلت الخلافة إلى معاوية .

وكان عبد الملك قد بلغ من العمر خمسة عشر ربيعا . فتى موفور
القوة راجح العقل .

ثقافته :

لا شك أنه كان لتلك الحياة الرغدة المترفة التى تهيأت لعبد الملك

آثرها الأكبر فى تكوين شخصيته العقلية والثقافية ، كما كان عدم الاستقرار فى هذا العصر ذا أثر على الناحية الفكرية • يقول الدكتور أحمد شلبى :

« ذلك هو العصر الأموى ، عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية ، ولا نزاع أنه لا ينافس عصر آخر فيما خلد من فتوح وما جذب للإسلام من جموع ، ونشأ به من أفكار ولم تكن الآراء التى ظهرت فى العصر العباسى إلا ذات جذور أموية ، فالعصر الأموى بذلك عصر فريد بين عصور التاريخ الإسلامى وهو جدير بأن يكون مفخرة للمسلمين فى جميع البقاع حتى العهد الحاضر » (٥) •

ثم يقول عن عبد الملك :

عبد الملك بن مروان هو المؤسس الثانى للدولة الأموية ، تولى الخلافة والعالم الإسلامى متفكك ، فابن الزبير أعلن نفسه خليفة فى الحجاز ، والشيعية ثائرون ، والخوارج متمردون ، والمختار بن أبى عبيدة الثقفى يقود جيشا كبيرا يبتش به دون أن يعرف لماذا يبتش ، وقد استطاع عبد الملك أن يرد البلاد كلها إلى الطاعة ، وأن يقضى على كل تمرد وعصيان ، فاستحق أن يوصف بأنه المؤسس الثانى للدولة الأموية • وعبد الملك كان يتمتع بثقافة عالية ، وكان يعد أحد فقهاء المدينة فى طبقة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير (٦) •

(٥) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٩٦

ط السابقة ١٩٨٤ •

(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٩ •

وقد ذكرنا من قبل أن عبد الملك بن مروان كان فتى موفور
القوة راجح العقل ومن توفرت فيه هذه الصفات ، تطلع إلى ثقافة
وهذا ما وجدناه في صاحبنا فقد أخذ من العلم بنصيب كبير •

ولا غرو فقد كانت المدينة في ذلك العصر كعبة القصاد من العلماء
والمحدثين والفقهاء ، فاعتزف الفتى عبد الملك من ذلك المورد الزاخر
ما شاء الله أن يغترف •

ثم توفي معاوية وخلفه ابنه يزيد • وكان عبد الملك قد بلغ
الرابعة والعشرين من عمره ، اكتملت رجولته ، وتفتق ذهنه ، وصفت
نفسه ، فانتقل هو وأبوه إلى دمشق ، حيث قربهما يزيد إليهما وأكرمهما
وبالغ في إكramهما •

ولا شك أن عبد الملك نعم بحياته الجديدة بدمشق ، حاضرة
الأمويين وملأهم ، فقد كان البلاط الأموي قد بلغ في ذلك العهد الغاية
هي الروعة والأبهة (٧) •

وقد ضرب عبد الملك في العلم بسهم وافر ، فشهد له عبد الله
ابن عمر ، إذ قيل : إنكم معشر أشباح قريش يوشك أن تنقرضوا فمن
خسأل بعدكم ؟ فقال (٨) ابن عمر : إن مروان ابنا فقيها فاسألوه •

ويروى أنه دخل على أبي هريرة رضى الله عنه • قال أبو هريرة
هذا يملك العرب • وقالت أم الدرداء ما رأيت أحسن منك محدثا

(٧) زعماء الاسلام حسن ابراهيم ص ٢٢٥ •

(٨) المرجع السابق ص ٢٢٩ •

ولا أعلم منك مستمعا • وقال الشعبي ما جالست أحدا إلا وجدت عليه فضلا إلا عبد الملك بن مروان ، فإني ما ذكرته حديثا إلا زادني فيه ، ولا شعرا إلا زادني فيه ، وكان عبد الملك بحكم ثقافته هذه بايغا فصيحاً ••• وكان عبد الملك يحفظ الشعر ويرويه ويستسيغه •• وكان حكيما أجرى كلامه مجرى المثل فقد قيل له من أفضل الناس ؟ قال : من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة (٩) •

موقف عبد الملك بن مروان من سياسة بنى أمية :

عرفنا في معرض حديثنا عن بنى أمية أنهم أخذوا الخلافة الإسلامية بالقوة ، واستعملوا في حكمهم أسلوب القهر • ولم يكن عبد الملك راضيا عن حالهم بل دائما يستنكر عليهم فعلهم • وفي ذلك يقول صاحب كتاب زعماء الإسلام :

« نعم عبد الملك — شأنه في ذلك شأن شباب بنى أمية — بمباهج هذه الحياة الجديدة • غير أنه كان يستنكر هذه السياسة الطائشة التي كان يسير عليها يزيد بن معاوية حين جهز جيشا إلى مكة • فقد روى أن عبد الملك قال : أعوذ بالله ، أبيعت إلى حرم الله ؟ ولما علم بنبأ الجيش الذي سيره يزيد لقتال عبد الله بن الزبير لم يقره عبد الملك على ذلك » •

ويروى من استنكار عبد الملك لأفعال بنى أمية كثير من الروايات منها :

ما رواه يحيى الغساني قال : لما نزل مسلم بن عقبة المدينة ، دخلت مسجد رسول الله - ﷺ - فجلست إلى جنب عبد الملك ، فقال لى عبد الملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت : نعم قال : ثكلتك أمك ، أتدري إلى من تسير ؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام ، الى ابن حواري رسول الله - ﷺ - وإلى ابن ذات النطاقين أما والله إن جئته نهرا وجدتته صائما ، وإن جئته ليلا لتجدنه قائما ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبههم الله جميعا فى النار (١٠) .

زهـد عبد الملك بن مروان :

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة كما ذكرنا من قبل ، ودرج فى ربوعها ، وشب تحت سمائها ، فأشرب قلبه الورع والتقوى والإيمان الصحيح لمجاورته قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

قال ابن سعد : كان عبد الملك زاهدا ناسكا بالمدينة قبل الخلافة . وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ، ولا أمقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان . وكان يكثر من الصلاة والخشوع لله . وروى أنه لم يحلف قطى جـد ولا هزل (١١) .

تولييه الخلافة :

بعد ما توفى معاوية وابنه يزيد ، وتولى الخلافة معاوية الثانى فى سنة ثلاث وستين للهجرة ، ثم مات معاوية الثانى سنة أربع وستين ،

(١٠) انظر زعماء الاسلام ص ٢٢٥ .

(١١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

فهاج عرب الشام ، وكانوا عصب الدولة وقوتها بفضل اتحادهم
وتماسكهم ، غير أن هذه الوحدة ما لبثت أن تفككت أوصالها حين مالت
كلب إلى بنى أمية وأصبحت قيس ضلعهم مع عبد الله بن الزبير ،
وانقسمت كلب نفسها (١٢) .

فمال فريق منهم إلى خالد بن يزيد وهو - وإن كان صغيرا - إلا
أنه كان فصيحاً بليغاً ، ومال فريق آخر إلى مروان بن الحكم ، لسنه
وشيوخه . وبايعوا مروان بن الحكم . بالخلافة سنة ٦٤ هـ وكان
« عبد الملك » قد بلغ الثامنة والعشرين - استطاع مروان أن يقف في
وجه ابن الزبير . ولم يمكث مروان في الخلافة كثيراً ، فمات سنة
٦٥ هـ ، وخلفه « عبد الملك » وتولى (١٣) عبد الملك زمام الحكم ،
وألقى خطبته السياسية الحازمة ، نظراً لاضطراب الأوضاع ، كما ولى
سيفه الصارم الحجاج بن يوسف ، العراق ، ويؤخذ على عبد الملك
حصار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ، ويروى أن الخلافة آلت إليه وفي
حجره مصحف ، فأطبقه وقال : هذا آخر عهدى بك (١٤) .

وهذا القول أعتمد أنه من الأقوال المزعومة على صاحبه الذي
شهر بتدينه ونبل خلقه وميله الشديد إلى الاستمساك بالدين والقرآن
الحكيم .

ويشهد لذلك ما يروى من أنه لما أشرف على الموت قال :

(١٢) زعماء الاسلام ص ٢٢٦ .

(١٣) زعماء الاسلام ص ٢٢٧ .

(١٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

« والله لو وددت أنى كنت منذ ولدت إلى يومى هذا جمالا ثم أوصى بنبيه بتقوى الله ونهأهم عن الفرقة والاختلاف وقتل : كونوا بنى أبرارا ، وكونوا فى الحرب وللمعروف منارا ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وأن المعروف يبقى أجره وذكره ، فى مرارة ، ولينوا فى شدة ، وكونوا كما قال ابن عبد الأعلى (١٥) :

إن القداح إذا اجتمعن غرامها بالكسر ذو خفق وبطش باليد
عزت فلم تكسر وإن هى بددت فالكسر والتوهين للمتبدد

وقد ولى الخلافة عام الجماعة (١٦) .

عاش « عبد الملك » زاهدا ، ومات زاهدا ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

« الأدب والتقد فى مجالس عبد الملك بن مروان »

لقد اعتنى « عبد الملك بن مروان » بالشعر عناية فائقة ، حيث كان — كما ذكرنا من قبل — يحفظ الشعر ويفهمه ، وأحب الشعراء ، وأحب أن يجالسهم ، يصفه الأستاذ السباعى بيومى فى معرض الحديث عنه فيقول :

« آلت الخلافة إلى عبد الملك ، وكان أعظم خلفاء بنى أمية ، ومعقد فخارهم ، من أية ناحية نظرت إليه وجدته الجواد الذى لا يشق

(١٥) راجع فى هذا زعماء الاسلام ص ٢٣٠ ط ثالثة — مكتبة

النهضة المصرية .

(١٦) الأغانى ص ٣١٧ ج ٢ — دار الكتب المصرية .

له غبار ، والفحل الذى لا يجده أنفه ، فإن طلبت السياسة ألفيت حكمة وخبرة وطدت الملك وقوته ، وإن أردت ديناً وعلماً وجدت الشريعة قد سلمت إليه زمامها ، وألقت عنده عصا تسيارها ، من حفظه لكتاب الله وسنة رسوله ، إلى جودة فقهه لمعانيها إلى بعد نظر فى التشريع ومعرفة الأحكام ، وإذا ما نشدت أدباً وجدت منه الخضم فى غزارة مائة ، وبعد قراره ، ومزتمى ساحله ، وشدة تياره ، وإن جاد لك هاضكاً بموجه ، ولقد ظهر ذلك جلياً فى روايته للشعر ظهوراً لم يجاره فيه الرواة ، حتى أصبح مجلسه منتهى الأدب ، وهذه بعض أمثلة له ، يقول المودب واده ، إذا رويتهم شعراً فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى (١٧) :

يبين الجارحين يبين عنى ولم تأنس إلى كلاب جارى
وتأمن جارتى من جنب بيتى ولم تستر بستر من جدار (١٨)

مجالس النقد :

عبد الملك فى مجمع من الشعراء :

قال يوماً فى مجمع من الشعراء الذين كانوا فى مجلسه ، يا معشر

(١٧) هو من بنى قرّة بن صعصعة ، أخى عامر بن صعصعة ، من قيس عيلان وبنو مرة يعرفون ببني سلول ، لأنها أهم ، وهى بنت ذهل من شيبان ابن ثعلبة ، وهم رهط أبى قريش السلولى ، وكانت له صحبة ، الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٥٥ .

(١٨) الأدب الاموى ، صور رائعة من الأدب العربى د/ أبو الخشب
ص ٢٠٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الشعراء ، تشبهوننا بالأسد الأنحر ، والجبل الوعر ، والملح الأجاج «
ألا قلتم كما قال كعب الأشعري (١٩) :

لقد خاب أقوام سر وظلم الدجى	يؤمنون عمرا ذا الشعر والبر
يؤمنون من نال الفتى بعد شبية	وقاس وليدا ما يقاس ذنوب الفقر
فعل للجيم بالبكرين وائل	مقالة من يلحى أخاه ومن يزرى
فلو كنتمو حيا صحيحا نفيتحو	بخيالكم بالرغم منه وبالصغر
وليتكم يا آل بكر من وائل	يسودكم ومن كان فى المال ذا وفر
هو المانع الكلب النباح وضيقه	خميص الحشا يرعى النجوم التى ترى

فهذا النقد من عبد الملك للشعراء يوضح عمق فهمه للصورة
الأدبية ، فهو يرفض التشبيه بالأسد مثلا ، أو الجبل ، أو الملح ،
وغيرها من الصور المكررة التى لا تنويع فيها ولا تجديد .

رأى أنها تصور معنى مألوفا قريبا ، ومحددا واتيا فهو شجاع
كالأسد وصعب كالجبل الراسى ومر كالملح الأجاج ، وتلك دعوة إلى
توجيه الشعر وجهات أخرى حتى لا يتجمد أو يتوقف .

وكان من عيوب المدح عند « عبد الملك » وهو الخليفة أن يترك
الشاعر الفضائل النفسية والقيم الخلقية الكثيرة والقوية إلى تشبيهات
صورية لا قيمة لها . تصور تلك المعانى القريية المكررة ، فنراه يحث

(١٩) الأدب الأموى د/ أبو الخشب ص ٢٠٩ ، ينظر كذلك
مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية ص ٣٠ - دار الفكر العربى
- بدون تاريخ .

الشعراء على أن يصوروا المدوح بأنه جواد كريم ورثا الجود
كأبرا عن كابر .

وهذا النقد يدل على بصر عبد الملك بن مروان بالشعر ، وتذوقه
له وتمييزه جيده من رديئه ، حيث أنه جعل ثراه وكثرة المال لم يأت
وهو شيخ كبير ، فهو غنى عارض ، وإنما كان يلازمه منذ صغره ، بل
توارثه عن آبائه ، لذلك يتوافد على كرمه القاضى والدانى فى جميع
الأوقات ، فلا ينام له ليل ، ولا يأكل له نجم ، ولا تنام له عين ، بل يظل
يقظا يطعم الجوعى والناس نيام ، وهكذا يصور الشعر الكرم فى صورة
عميقة متنوعة العناصر والروافد ، فتوحى بتنوع القيم الخلقية للجود ،
وهكذا ينبغى أن يصور الشعر الشجاعة وصلابة المراس كما صور
كعب الأعمش الجود والكرم (٢٠) .

مجلس من مجالس النقد لعبد الملك وفيه الأفيشر (٢١) :

دخل الأفيشر على عبد الملك بن مروان « وعنده قوم » فتذاكروا
الشعر وذكروا قول نصيب (٢٢) :

(٢٠) انظر الصورة الأدبية تأريخ ونقد د/ على على صبيح . دار
الحنلى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨٣ .

(٢١) هو المغيرة بن الأسود بن وهب ، أحد بنى أسد بن خزيمه
ابن مدركة بن اياس بن معمر ، وكان يفضب اذا قيل له الأفيشر الشعر
والشعراء ج ٢ ص ٥٦٣ .

(٢٢) كان نصيب عبدا أسود لرجل من أهل وادى القرى ، فكاتب
على نفسه ثم أتى عبد العزيز ابن مروان فقال فيه مدحة موصلة واشترى
ولاه وقال أبو اليقظان : هو عبد بنى كعب بن صمرة من كنانة ، وقال

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فيا ويح دعد من يهيم بها بعدى

فقال الأفيشر : فأنه لقد أساء قائل هذا الشعر ، فقال عبد الملك :
فكيف كنت تقول لو كنت قائله ؟

قال كنت أقول :

تحبكم نفس حياتى فإن أمت أو كل بدعد من يهيم بها بعدى

فقال عبد الملك :

والله لأنت أسوأ قولاً منه حين توكل بها فقال الأفيشر :

فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال كنت أقول :

تحبكم نفسى حياتى فإن أمت فلا صلحت هند لذى خلة بعدى

فقال القوم جميعاً : أنه والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم (٢٣) .

آخرون : كان من بلى من قضاة ، وكانت أمه سوداء ، فوقع بها سيدها
فأولدها نصيباً ، فوثب عليه عمه بعد موت أبيه فاستعبده ثم باعه من
عبد العزيز ابن مروان : الشعر والشعراء ج ١ ص ٤١٧ .

(٢٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ٤١٩ ت أحمد ومحمد شاكر ط
ثالثة ١٩٧٧ ونقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوى د/عبد السلام
عبد الحفيظ ص ٣١١ ، ط دار الفكر العربى سنة ١٩٧٨ وينظر كذلك
ترائنا فى النقد الأدبى بين الأصالة والتجديد ص ٧٤ ، د/عبد الحميد
هلال مطبعة الأمانة ١٩٨٢ م .

ومن خلال فهمنا للأبيات الثلاثة نجد أن قول نصيب أكثر حفاظة على إثارة الحب ، واعزاز الحبيب ، والانشغال به ، وتصوير عناده ، وتأبيه على المحب ، وما جبل عليه من التمتع والدلال ، بل يزداد تمتعه وعنادا وفاء لحبيبة الذى خطفه الموت ، فلن ينال منها محب بعد موته وفاء وعرفانا له ، فالقلب لا يتسع إلا للحبيب الأول •

وهذا أحفظ لرجولة الرجل أيضا • من قول الأفيشر وعبد الملك ابن مروان لأن النصيب لم ينس حتى وهو يفكر فى انتهاء حياته أن يفكر فيمن يهيم بعده ، ويحبها كما أحبها هو ، ولا على الإنسان أن ينشغل بحبيبه بعد أن يموت هو •• فإذا صور الشاعر ما أحس به وما يشعر به الآخرون فلا ضرر ، ولكن الضرر أن يبدو اشاعر أنانيا ، كما يبدو من كلام أمير المؤمنين ، عبد الملك بن مروان •• أو يبدو مخالفا للحقيقة كما فعل « الأفيشر » إذ لا يحدث من رجل أن يخلف على حبيبه من يدبها من بعده ••• ولقد يكون الجالسون مع عبد الملك بن مروان معذورين فى مجاملتهم إياه أو خائفين من تسفيه رأيه •

وأرى أنهم فهموا أن الخليفة فى صورته الشعرية كانت أقوى من صورة نصيب فى تصوير تميم الحبيب عن غير الحبيب الأول بعد موته إثارة لحيه وفاء له وعرفانا بموقفه من قلبها ، فلا يقبل أحد أن يحل محله مطلقا ، فهى لا تصاح لأحد بعد موته وعلى ذلك تكون « لا » ليست ناهية لدعاء بل هى نافية لنفى صلاحية هذا للحب بعد موت الحبيب •

عبد الملك بن مروان يجلس لعرض أحياء العرب :

يذكر صاحب الأغاني أن عبد الملك بن مروان لما قدم الكوفة بعد قتله مصعب بن الزبير جلس لعرض أحياء العرب — وقال عمرو

ابن شيبية : إن مصعب بن الزبير كان صاحب هذه القصة • فقام إليه
معبد بن خالد الجدلي وكان قصيرا دميما ، فتقدمه رجل حسن الهيئة ،
فقال معبد : فنظر عبد الملك إلى الرجل وقال : ممن أنت ؟ فسكت ولم
يقبل شيئا وكان منا ، فقلت من خلفه (٢٤) : نحن يا أمير المؤمنين من
جديلة ، فأقبل على الرجل وتركني ، فقال : من أيكم ذو الأصبع ؟ قال
الرجل : لا أدري ، فقلت من خلفه ، كان عدوانيا ، فأقبل على الرجل
وتركني وقال : لم سمى ذا الأصبع ؟ قال الرجل : لا أدري ، فقلت :
نهشته حية في أصبعه فبيست ، فأقبل على الرجل وتركني ، فقال : وبم
كان قبل ذلك ؟ قال الرجل : لا أدري ، فقلت : كان يسمى خرثان ، فأقبل
على الرجل وتركني ، فقال : من أي عدوان كان ؟ فقلت من خلفه : من
بنى ناج الذين يقول فيهم الشاعر :

وأما بنو ناج فلا تذكر منهم ولا تتبع عينيكم ما كان هالكا
إذا قلت معروفا لأصلح بينهم يقول وهيب لا أسالم ذلكا
وروى عمر بن شيبية : لا أسلم :

فأضحى كظهر الفحل جب سنامه يدب إلى الأعداء أحذب باركا
فأقبل على الرجل وتركني ، وقال : أنشدني قوله (٢٥) :

(٢٤) الأغاني : المجلد الثالث ص ٩١ ، دار الكتب المصرية ط أول
سنة ١٩٣٦ م

(٢٥) الأغاني المجلد الثالث ص ٩١ - دار الكتب المصرية ط أول
سنة ١٩٣٦ م

عذير الحى من عدوان (٢٦)

قال الرجل لست أرويهما ، قلت يا أمير المؤمنين : إن شئت أنشدتك
قال : أذن منى ، فإنى أراك بقومك عالما فأنشدته :

وليس المرء فى شئ	من الأبرام والنقض
إذا أبرم أمرا	خاله يقضى وما يقضى
يقول اليوم أمضيه	ولا يملك ما يمضى
عذير الحى من عدوان	كانوا حبة الأرض
بقى بعضهم بعضا	فام يبقوا على بعض
وقد صاروا أحاديث	يرفع القول والخفض
ومنهم كانت السادات	والوفون بالقرض
ومنهم حكم يقضى	فلا ينقض ما يقضى
ومنهم من يجيز لنا	س بالسنة والفرض
وهم من ولدوا أشبوا	يسر الحب المحض
ومنهم ولدوا عامر	ذو الطول والعرض
وهم يؤوا ثقيفا	وذا ذل ولا حفص

فأقبل على الرجل وتركنى ، وقال : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان .
فأقبل على فقال : كم عطاؤك ؟ فقلت خمسمائة ، فأقبل على كاتبه وقال :
اجعل الألفين لهذا والخمسمائة لهذا ، فأنصرفت بها (٢٧) .

(٢٦) الأغاني ج ٣ ص ٩٢ ط أول - دار الكتب المصرية سنة

١٩٣٦ .

(٢٧) المرجع السابق .

وأرى من خلال الحوار الذى دار بين الخليفة « عبد الملك بن مروان » فى مجلسه وبين الرجل الدهيم ، ومعبد بن خالد الجدلى ، يدل على منزلة الخليفة الأدبية والنقدية ، وتنوع مجالسه الأدبية فى أحياء العرب ، وعلى خبرته برواية الشعر ، وبصيرته الثاقبة به ، وتقديره للعلماء والشعراء وتشجيعه لهم بما يستحقون من مكافآت وعطايا كما يتضح لنا فى هذه الجلسة بإيجاز •

١ - خبرته ومعرفته بتاريخ المشاهير من العرب وما حدث بهم من أحوال فقد سأل عن ذى الاصبع العدوانى ، ليعرف الحاضرين أسباب تسميته بهذه الأسماء وتلك الصفات •

٢ - أصر عبد الملك أن يفضح أمر الرجل الدهيم لكى يرد عنه اللوم حين ينقص عطيته من ألفين إلى الخمسمائة التى يستحقها ويعطى الألفين لمن يستحقها وهو معبد بن خالد الجدلى الذى كان عالماً بالشعر وروايته وبأخبار العرب وأحوالهم •

٣ - ذكر الخليفة عبد الملك الرجل الدهيم بالشعر الذى قيل فى هذا الشأن لكى يحثه على أن يرويه ويلقيه على الحاضرين فقال له : أنشدنى قوله « عذير الحى من عدوان » مما يدل على أنه كان يحفظ هذه القصيدة ويرويها قبل أن يسمعا من معبد بن خالد الجدلى •

٤ - اختيار الخليفة هذا الشطر السابق دون غيره من بقية القصيدة يدل على ذوقه الأدبى الرفيع وبصيرته الناقدة والنافذة فإن : « عذير الحى من عدوان » هو بيت القصيدة فيها ، لأنها تدل على ما حدث للأصبع من عدوان عليه حتى قطع أصبعه فسمى بذى الاصبع

العدواني ، ودل ذلك على حسن اختيار الخليفة وبلاغته وذوقه النقدي
الحصيف في الدلالة على المراد وما يهدف إليه بإيجاز .

عبد الملك مع أعرابي :

ذكر عوانة بن الحكم : أن عبد الملك بن مروان صنع طعاما
فأكثر ، وأطاب ودعا الناس ، فأكلوا فقال بعضهم : ما أطيب هذا
الطعام وما أكثره ، وما أظن أحدا أكل أطيب منه ، فقال أعرابي من ناحيته
القوم : أما أكثر فلا ، وأما أطيب فقد أكلت أطيب منه ، فطفقوا
يضحكون ، فأشار إليه عبد الملك ، فدنا منه فقال : ما أنت لما نقول
بحقيق قال : بلى : يا أمير المؤمنين ، فبينما أنا بهجر في تراب أحمر شى
أقصاها حجرا إذ توفي أبى وترك كلا وعيالا ونساء ونخلا . وفى النخل
ثمرة لم ير مثها الناظرون ، كما أخفاف الرباع ، ولم ير تمر قط أغلظ
لحما ولا أصغر نوى ، ولا أحلى حلاوة منها وكانت أتان وحشية قد ألقت
تلك النخلة ، فنشبت برجليها ، وترفع بفيها وتعطوا بغيها ، وكادت تنفذ
ما فيها ، فانطلقت بقوسى وكنانتى وأسهمى وزندى ، وأنا أظننى أرجع
من ساعتى ، فمكثت يوما وليلة ، حتى إذا كان السحر ، أقبلت فرميتها
فأصبتها ، ثم عمدت إلى سرتها ، فأبرزتها ثم عمدت إلى حطب جزاء
فجمعته ، وإلى رصف فوضعت ، وإلى زندى فأوريتها ، ثم ألقيت سرتها
فى ذلك الحطب ثم أدركنى النوم فذمت ، فلم يوقظنى إلا حر الشمس ،
وانطلقت فكشفتها وألقيت عليها من رطب تلك النخلة من مجزعة ومنقطة
فسمعت لها أطيطا (٢٨) كندأى قطا وغطيطا (٢٩) ، ثم أقبلت أتناول

(٢٨) الايطيط : صوت كأصوات القطط ، ينظر المعجم الوسيط

ج ١ ص ٢٠ ط ثانية .

(٢٩) النطيط : صوت كغطيط النائم .

الشحمة واللحمة والتمرة ، فقال عبد الملك : لقد أكلت طيبا ، فمن أنت ؟
قال : أنا رجل جانبتي صأصة (٣٠) اليمن ، وعنقته (٣١) تميم
وأسد ، وكشكشة (٣٢) ربيعة ، وتأنيث كنانة •

قال عبد الملك : فمن أنت ؟ قال : أنا رجل من أخوانك بنى عذرة ،
قال عبد الملك : أولئك من أفصح العرب ، فهل لك من معرفة بالشعر ؟
قال : سل عما بدا لك يا أمير المؤمنين • قال : أى بيت قالت العرب
أمدح ؟ قال : قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

قال : وكان جرير فى القوم ، فتحرك ورفع رأسه ، قال عبد الملك :
فأى بيت قالت العرب أفخر ؟

قال : قول لشاعر :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

فتحرك جرير • وتناول • ثم قال عبد الملك :

فأى بيت قالت العرب أهجى ؟

قال : قول الشاعر (٣٣) :

(٣٠) يريد صوتهم الذى يشبه صأصة الطائر •

(٣١) يريد ابدال الهمزة عين فى لغة تميم •

(٣٢) يريد ابدال كاف الخطاب شيئا فى لغة ربيعة •

(٣٣) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعاتهم ص ٣٤٢ ط ثانية

١٩٧٠م دار الفكر ، وينظر بناء القصيدة العربية فى النقد العربى القديم

د/ يوسف حسين بكار ص ٣٤٧

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
فتحرك جرير • قال عبد الملك : فأى بيت قالت العرب أغزل ؟
قال : قول الشاعر :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا
فتحرك جرير (٣٤) ، وقال عبد الملك • فأى بيت قالت العرب
أحسن تشبيها ؟ قال قول الشاعر :

سرى لهم ليل كأن نجومه قناديل فيهن الذبال المفل
فقال جرير : أصلح الله شأن أمير المؤمنين ، جائزتى لأخى عذرة ،
قال عبد الملك : ومثلها معها • قال : وكانت جائزة جرير عند الخلفاء
أربعة آلاف وما يتبعها من كسوة •
فخرج الأعرابى وفى يده اليمنى ثمانية آلاف ، وفى يده اليسرى
رزمة ثيابه (٣٥) •

وأرى أن الأحكام النقدية فى هذا المجلس مطلقة وعامة إلا أن
لها دلائلها الأدبية والنقدية العميقة على الذوق الأدبى أو الاحساس

(٣٤) هو جرير بن عطية بن حذيفة ، ولقب حذيفة الخطفى وهو
من بنى كليب ابن يربوع ، وأم جرير أم قيس بنت معبد من بنى كلاب
ابن يربوع أيضا الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٣٧١ ، وهو والفرزدق
والأخطل لهم شهرة كبيرة •

(٣٥) راجع القصة فى جمهرة أشعار العرب - أبى زيد القرشى
ص ٨٧ بيروت ١٩٦٣ م وينظر الأغاني ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٢ •

النقدى ، والحصافة فيه ، ثم على الخبرة بالشعر وبرأيته ، وعلى حفظه ومتابعته وعلى المشاركة الإيجابية من الخليفة أولا فى مجالسه الأدبية ، وغير ذلك مما يوحى به هذا المجلس العلمى ، وتلك المناظرة الأدبية بينه وبين الأعرابى من بنى عذرة •

أولا : عدم الاستبداد بالرأى واتساع الأفق ورحابة الصدر لمن يخالف رأيه ويتصدى دونه ، حيث تمرد الأعرابى على رأى الحاضرين فى استحسان طعام الخليفة فلم يغضب ، بل اتسع له ، ودفعه إلى أن يبدى رأيه ، وأطال فى عرضه فى قطعة أدبية ، ونثر فنى رائع أسكت الجميع ، وجعل الخليفة إبلاغة الأعرابى فى عرضه لرأيه وتصويره الأدبى لطيب لدمه وطريقة نضجه يحكم له بالجودة والانتقان لا فى طيب اللحم فحسب ولكن فى روعة تصويره الأدبى الذى كان له أثره الجميل على الحاضرين وعلى رأسهم الخليفة ، حين اهترت عاطفته لهذا النص الأدبى فحكم له بالجودة واعترف له ببلاغته مما جعله يجرى معه حوارا أدبيا ونقديا فى مجال الشعر وروعته •

ومن هنا سأل الخليفة وهو على بصيرة نافذة وناقدة بالشعر عن أمدح وأفخر وأهجر وأغزل أبيات فى الشعر ، فكان فى كل مرة يجيب فيها الأعرابى ببراعته على حكمه النقدى وإن كان عاما إلا أن الحكم الناقد دائما يكون أكثر ذوقا وأدق حكما لسببين أولهما : أنه يسأل ولا يسأل إلا وهو بصير بالشعر والرواية ونقده ، وثانيهما : أنه لعدم اعترافه على الإجابة فيه تأكيد للحكم النقدى والتأكيد أقوى من الإجابة ، بدليل أنه لصدة فى الإجابة الأولى طلب من الأعرابى قضية نقدية أخرى ، وهكذا مما يدل على تنوع ثقافته الأدبية ، ونفاذ بصيرته النقدية ، لذلك أحسن عطاء الأعرابى فضاعف له العطاء الذى تنازل عنه جرير له ، وهى

أربعة آلاف ، واستحق من الخليفة ابراعة ذوقه النقدى ثمانية آلاف ،
وتقديره والاعجاب به أمام الحاضرين لروعة تصويره الأدبى (٣٦) .

ولذلك جاء النقاد بعد الخليفة فصدقوا على حكمه النقدى وصار
رأيه مشهورا فى الدراسات النقدية وله مكانته المتميزة فى النقد العربى
قديمًا وحديثًا .

نقد عبد الملك لكثير عزة (٣٧) :

كان عبد الملك لبصره بالشعر ، وتذوقه له ، وتمييزه جيده من
رديئه يذعن للخصم إذا كان الحق فى جانبه روى أنه أنشد قول كثير
هى أخذه للخلافة :

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بحد المشرفى استقالها

فأعجب به كل العجب ، وكان الأخطل (٣٨) حاضرا ، فقال له : لقد
هلت أحسن منه يا أمير المؤمنين . قال : وما قلت ؟ فأنشده (٣٩) :

(٣٦) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر : د/ على على صبح
الطبعة الثانية ١٩٩٨ المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة .

(٣٧) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة عن خراعة ، وكان
رافضيا الشعر والشعراء ج ١ ص ٥١٠ .

(٣٨) هو غياث بن غوث ، من بنى تغلب ، من قديوكس ، ويكنى
أبا م'ك وقال مسلمة بن عبد الملك : ثلاثة لا أسأل عنهم ، أنا أعلم
العرب لهم : الأخطل والفرزدق وجريز ، فأما الأخطل فيجىء سابقا أبدا
وأما الفرزدق فيجىء مرة سابقا ومرة ثانيا ، وأما جريز فيجىء سائبقا
مرة وثانيا مرة وسكيتا مرة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٩٠ .

(٣٩) الأدب الأمري د/ أبو الخشب ص ٢٠٩ .

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غصب
جعلتها لك حقا ، وجعلك قد أخذتها غصبا ٠٠٠ قال صدقت ، وعندما
سمع عبد الملك قولاً كثيراً :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطئت لها النفس زلت
علقا عليه قائلاً :

لو كان فى تقوى وزهد لكان أشعر الناس
وعندما سمعه يقول :

أسىء بنا أوا حتى لا ملومه لدينا ولا مقلية أن تقلت
فقال :

لو كان هذا فى وصف الدنيا لكان أجود (٤٠)

وأرى أنه قد استحسن الخليفة قول الأخطل لما ذكره الأخطل
والأسباب أخرى من أهمها : استتباب الأمن فى حكم جميع الخلفاء قبله
حيث تتابع عليها الجميع من غير قتال أو اغتصاب من غيرهم .

ثم ما يوحيه التعبير بالشهر الحرام ، بما يتلائم معه من تحريم
القتال فيه فكأنه جعل القتال فى سبيلها يحرم كتحريم الله تعالى فى
الشهر الحرام ، وإن هذا الملك يعد أمراً حتمياً وعادياً ومألوفاً عند
الرعية . فليس هو بأمر جديد عليهم ، ولا هو من طريق القتال والغصب .

(٤٠) الموضح ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، نقد النثر ص ٩٨ ، الأغاني

من الأحزاب المناوئة لهم ، وفى هذا يؤكد بضعف الأحزاب السياسية من حولهم ، وانقطاع آمالهم فيها ، مادام الملك فى بنى أمية القوية الآمنة المستقرة ، بينما تدل صورة « كثير » على القوة والشجاعة والعنف ، لكنه يوحى بعدم الاستقرار والأمن فى البلاد ، وإن الأحزاب يملكون القوة ولا يعدمون المقدرة على المناوئة والحرب من حين لآخر .

وأما تصوير هجر عزة له وإصرارها على ذلك حتى أصبحت نفسه تمتلئ بطاقات لتحمل كل المصائب بعدها ، فهي دونها بكثير ، لكن الخليفة لم يستحسن هذه المعانى ، وكأن الأدق فى الصورة والأقوى تأثيرا إذا أوجيت الصورة ، فإن تحمل المصائب كلها سواء أكان هجر عزة وغيره أمر مقبول يستقبله « كثير » برضى وإيمان لأنه أكثر إيمانا بقضاء الله وقدره ، وهذا هو الزهد فى الدنيا والتقوى من كل ما يهز إيمان النفس ورضاها عما كتبه الله تعالى عليها ، لذلك قال الخليفة ، لو كان فى تقوى وزهد لكان أشعر الناس وهذا يدل على بصيرته الفاعلة . ونقداته الحصيفة الواعية .

ومن ذلك أيضا عندما أنشد كثير عبد الملك مدحته التى يقول فيها :

على بن أبى العاص دلاص (٤١) حصينة

أجاد المسدئ سردها (٤٢) وأزالها

يؤود ضعيف القوم حمل فتسبرها

ويستضع القدم الأثم احتمالها (٤٣)

(٤١) الدروع اللينة الملساء .

(٤٢) نسجها .

(٤٣) طبقات فحول الشعراء السفر الثانى قرأه وشرحه محمود

محمد شاكر ص ٥٤١ ط المدنى المؤسسة السعودية بمصر .

فقال عبد الملك :

أفلا قلت ما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب :

وإذا تجيء كتيبة مملومة خرساء يخشى الزائدون نهالها
كنت المقدم عبر لاييس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين ، وصف الأعشى صاحبه بالبطش والفرق والتقرير ، ووصفتك بالحزم والعزم ، فأرضاه (٤٤) ، نلاحظ هنا أن عبد الملك استقبح مدحه فى أول الأمر ، ولكنه عندما شرح له كثير كلامه ، ومعنى قول الأعشى رأى أن ما قاله كثير فى مدحه حسن فرضى فى ظنى لا عن جهل • ويعلق أستاذنا الدكتور/ عبد اللاه محروس على هذا الجانب النقدى من عبد الملك لكثير عزة فيقول :

« مدح كثير عبد الملك • بكثرة السلاح الذى يحملة ، فلم يعجب المدوح ذلك • فليست شجاعة العربى فى التحصن بالسلاح ، وإن كان قد أظهره فى مظهر القوى القادر على النهوض بما يعجز عنه جماعة الرجال الأشداء ، فالبعير يمكنه السير بما هو أثقل من ذلك ، فأراه المديح الحق الذى يرتضيه شجعان العرب ، فيما قاله الأعشى عندما مدح قيس ابن معد يكرب فجعله يجابه الكتيبة المجتمعة القرية التى يخاف المدافعون سيوفها ونبالها المتعطشة للدماء ، إنه يتقدم نحو هذه الكتيبة الخيفة من غير درع يضرب بسيفه أبطالها فيفنيهم ، وهكذا تكون الشجاعة المحموده • التى ينشدها العربى ويفخر بها ، لأنها تعود إلى ذاته لا إلى ما يحملة من سلاح فكان اعتراض عبد الملك على حق »

أما تبرير الشاعر فإنه كان درواغة منه حتى لا يخسر العطاء ، ولم يكن رضا عبد الملك عن اقتناع بما قال كثير ، وإنما هو تغاضى الكريم عن هفوات المسيئين لعلهم يقلعون عن مثلها (٤٥) •

وأنا مع المذكور عبد الله فيما ذهب إليه ، وما يدل على صحة هذا الذى ذكرت ما عرف عن كثير أنه كان على غير ولاء لبني أمية ، فقد ذكر صاحب الموشح تعليقا على البيت الذى مدح به كثير عبد العزيز ابن مروان :

وما زالت رقاك تسلم ضغنى وتخرج من مكانها ضبابى
يقول المرزبانى :

(وحدثنا ابن دريد قال : أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال : قال محمد بن على لكثير : تزعم أنك من شيعتنا ، وتمدح آل مروان ؟ قال : إنما أسخر منهم ، وأجعلهم حيات وعقارب ، وأخذ أموالهم •

وهو بهذا أقر بغلطته ، وأنه لا يمدح وإنما يسخر ، ووضح فى جلاء أن اعتراض عبد الملك الذى ذكرته من قبل كان حقا ، ومدح الأعشى هو النموذج الذى يعجب (٤٦) •

ومما يؤكد دليلنا أيضا ما ذكرناه آنفا : أن كثير أنشد عبد الملك قوله :

فما رجعوها عن مودة ولكن بحد المشرفى استقالها

(٤٥) النقد العربى القديم دراسة وتحليل د/ عبد الله محروس.

ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ط الأمانة ١٩٨٣ •

(٤٦) النقد العربى القديم د/ محروس ص ٢٢٣ •

فقال للأخطل : كيف تسمع ؟ قال : هجاءك يا أمير المؤمنين قال :
بلى فقال الأخطل : ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن من هذا ، حيث
أقول :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غضب
فجعلته لك حقا ، وجعلك اغتصبته •

رأى عبد الملك بن مروان فى شعر كثير :

يروى صاحب الأغاني عن الجرمي قال حدثنا الزبير قال حدثني
محمد بن أبيه (٤٧) ، قال : قال عبد الملك من أشعر الناس اليوم
يا أبا صخر ؟ قال : من يروى أمير المؤمنين شعره • فقال عبد الملك :
أما إنك لمنهم • قال كثير لعبد الملك : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟
قال : أراه يسبق السحر ، ويغلب الشعر ، وكان عبد الملك يخرج شعر
كثير إلى مؤدب وعده مختوما يرويه إياه ويرددوه •

وإن كنت أرى أن الخليفة لم يستحسن قول كثير السابق قبل أن
يسمعه قول الأعشى لأن دلالة صورة الأعشى على العزم والحزم لم
يكن صريحا بل عن طريق الإيحاء والتأمل بينما صورة كثير ذات عليهما
صراحة مع قوة دلالتها أيضا على القوة والشجاعة فقد جمع بين
الأميرين وبهذا أكون على خلاف مع الخليفة •

أحدث عبد الملك مع عزة عن كثير :

دخلت عزة على عبد الملك بن مروان وقد عجزت ، فقال لها :

أنت عزة كثير ، قالت : أنا عزة بنت حميل • قال : أنت انتى يقول لك كثير (٤٨) :

لعزة نار ما تبوح كأنها إذا رمقناها من البعد كوكب
فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد كنت
فى عهده أحسن من النار فى الليلة الغرة • وفى حديث محمد بن صالح
الأسلمى : فقالت له : أعجبه منى ما أعجب المسلمين منك حتى صيروك
خليفة • قال : وكانت له من سوداء يخفيها فضحك حتى بدت • فقالت :
له : هذا الذى أردت أن أبعده • فقال لها :

هل تروين قول كثير فيك :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى يا عز لا يتغير
تغير جسمى والخليقة كالتى عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

قالت : لا ولكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الهم لو تمشى بها العصم زلت
صفوحا (٤٩) فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملته

فأمر بها فأدخلت على عاتكة بنت يزيد - وفى غير هذه الرواية
أنها أدخلت على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان - فقالت لها :

(٤٨) الأغاني ج ٢ ص ٢٧ ط أولى - دار الكتب ١٩٣٦ م •
(٤٩) الأغاني ج ٩ ص ٢٨ - وذكرها أيضا صاحب كتاب عصر
المؤمن ج ٢ ص ١٢٥ ، وما بعدها والشعر والشعراء ج ١ ص ٥١٧ •

أرأيت قول كثير (٥٠) :

تقضى كل ذى دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها
ما هذا الذى ذكره ؟ قالت : قبله كنت وعدته بها •

قالت : أنجزتها وعلى أثمها •

وأرى أن هذا المجلس الأدبى يدل على إحاطة الخليفة بما صدر
من الشعر فى عصره ، وقبل عصره حتى أنه كان يروى شعر كثير عزة
حتى فيما يخصها ، فقد عرض عليها لكثير قول قيل فيها ولم تسمع به
كما يدل الخبر على أنه يؤدب أهل بيته وزوجه بالمشاركة فى مجالسه
الأدبية والنقدية •

كثير يطالب أرضاً له :

طلب كثير من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضاً له يقال
لها : غرب ، وقدم بين يدي طلبه تلك الأبيات :

جزيتك الجوازي عن صديقك نظرة وأدناك ربي فى الرقيق المقرب
فإنك لا يعطى عليك ظلامه عدو ولا تنأى عن المتقرب

فقال له : أترغب غرباً ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : اكتبوها

تله ففعلوا (٥١) •

وأرى أن هذا الخبر يدل على تشجيع الخليفة للشعراء وحثهم
على إجادة الشعر وتجويده ، فإنه يرى أن الشعر لا يقوى ويكثر إلا في
ظلال التشجيع بالنقد والمكافأة والتقدير من أولى الأمر وعلى رأسهم
الخليفة •

(٥١) عصر المأمون د/ أحمد فريد رفاعي ج ٢ ص ١٢٦ ط الأولى

دار الكتب المصرية ١٩٢٧م •

(٢٩ - لغة أمسيوط)

جلسة أخرى لعبد الملك وعنده كثير

يذكر صاحب العقد الفريد أن عبد الملك سمر ليلة وعنده كثير عزة فقال له : أنشدني بعض ما قلّت في عزة ، فأنشدته إلى هذا البيت :

هممت وهمت ثم هابت وهابها حياء ومثلّى بالحياء حقيق

فقال له عبد الملك : أما والله لولا بيت أنشدت فيه قبل هذا لحرمتك جائزتك ، قال ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنك شركتها معك في الهيبة ، ثم استأثرت بالحياء دونها ، قال : فأى بيت عفوت به عنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولك :

دعونى لا أريد بها سواها دعونى هائما فيمن يهيم (١)

فقد عاب عليه عبد الملك فى تلك العبارة أنه وصف نفسه بصفات لا يصف نفسه بها عاشق مقيم احرقته الصبابة ، بل إن كثير مدح نفسه فى هذا البيت أكثر مما تغزل فى حبيبته حين وصف نفسه بالمهابة ، والجلال ، والحياء وإنما تلك صفات المحبوبات لا أوصاف المحبوبين . أو على حدّ تعبير استاذنا الدكتور/ عبد الله محروس حيث يقول : « فما أبقي لفتاته بعد أن سلبها احياء وهو أحلى ما تزدان به المرأة ، فكما نرى نقد عبد الملك نقد عليم بالأدب ، خبير بأحوال النفوس ، قادر على التعمق فى فهم الشعر وتذوقه ، ورأيه فى هذا النقد يوافق آراء المتأخرين من انشعراء ، والأدباء ، والنقاد من أمثال أبى تمام ، وأبى هلال وقدامة بن جعفر الذى يرى :

(١) العقد الفريد - أحمد بن عبد ربه الأندلسى - ج ٣ ص ٩٦٣

أن النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهاك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد والالوعة ، وبما كان فيه من التصابي والرقّة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحفظ والوزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة (٢) • ويروى صاحب الطبقات تقول كثير (٣) :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه
حصام عليها فظلم يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقبه
بكت ، وبكى مما شجاها قطينها

فقال عبد الملك : والله لكانه شهد عاتكة ، بنت يزيد بن معاوية وهي امرأته •

وأرى أنه لا يخفى علينا أن نظرات الخليفة في هذا المجلس كانت حقلاً نقدياً خصيباً له أثره الكبير في حركة النقد الأدبي بعده في العصر العباسي وتأثر النقاد والشعراء بأرائه في النقد ، مما كان له الأثر الكبير في شراء النقد الأدبي ، وهذا ما أراه يؤكد ما ذهب النقاد إليه في موازين النقد الدقيقة للخليفة عبد الملك بن مروان •

(٢) راجع دراسات في نقد الأدب العربي د/ بدوي طبانة ص ١٠٤

(٣) طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحي - السفر الثاني

قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ص ٥٤٣ المدني المؤسسة السعودية

نقد عبد الملك لابن قيس الرقيات :

وأنشد عبيد الله بن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان بعد أن
صفح عنه وأمنه (٤) •

اسمع أمير المؤمنين	ادحتي وثنائها
أنت ابن معتلج البطا	ح كذا وكدائها
ولبطن عائشة التي	فضلت أروم نساها

فلم تعجب عبد الملك كلمة البطن في الشعر وإن كان يرويها رجال
الأنساب ، وأثر عليها كلمة (نسل) وهذا يدل على ذوق رفيع يتطلى
به عبد الملك بن مروان في تخيره للألفاظ •

وأرى أن رأى الخليفة في دلالة النسل أعف وأظهر من التعبير
بالبطن للمرأة وهي عورة مكشوفة ينبغى أن يترفع الشاعر عنها ، وخاصة
وهي من حرمت الخليفة ثم نجد روعة التصوير بالنسل كرافد من روافد
التصوير الأدبي وعناصره للدلالة على استمرار الخلافة الأموية في
نسله وأولاده وأولياء عهده الوليد وهشام ويزيد وسليمان وغيرهم ،
وقى هذا أكثر مدحا واشادة بالدولة الأموية والملك (٥) •

وأنشد ابن قيس الرقيات مرة أخرى عبد الملك قوله :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعتنى وقرعت مروتى

(٤) تاريخ النقد الأدبي العرب - ط أحمد إبراهيم ص ٣٦ -

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ •

(٥) انظر البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر - د/ على علي صبح

- المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٩٨م - الطبعة الثانية •

وحببتنى حب السنام وأم يتركنى ريشا فى منكبيه
فقال له : أحسنت ، لولا أنك خنثت فى قوافيه ودافع الشاعر عن
كلامه ، فقال : ما عدوت كتاب الله : « ما أغنى عني ماله » (٦) .
ويذكر صاحب الأغاني :

أراد عبد الملك بن مروان البيعة لابنه الوليد بعد عبد العزيز بن
مروان ، وكتب إلى عبد العزيز يسأله ذلك ، فامتنع عليه ، وكتب إليه
يقول له : لى ابن لىس ابنك أحب إلى منه ، فإن استطعت ألا يفرق بيننا
الموت وأنت لى قاطع فافعل . فرق له عبد الملك ، وكف عن ذلك ،
فقال عبيد الله بن قيس فى ذلك - وكان عند عبد العزيز :

يخافك البيض من بنيك كما	يخلف عود النضار فى شعبه
ليسوا من الخروع الضعاف ولا	أشباه عيدانه ولا غريبه
نحن على بيعة الرسول التى	أعطيت فى عجمه وعابه
تأتى إذا ما دعوت فى البوغف	المسرود أبدانه وفى جنبه (٧)
تهدى رعيلا أمام أو عن لا	يعرف وجبه البقاء فى لجبه (٨)

وقال : أليس هو القائل :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعراء

(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٣٦ مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر عام ١٩٣٧ .
(٧) والزعفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة .
(٨) راجع الأبيات فى الأغاني ج ١٧ ص ٢٧١ - ٢٧٢ الهيئة
المصرية العامة للكتاب .

تذهب الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام (٩) العقلية العذراء
وهو القائل :

على بيعة الإسلام بايعن مصعبا
كراديس من خيل وجمعا مبارك
تدارك أخرانا ويمضى أمامنا
أمال على أخرى السيوف البواتكا (١٠)
قال : فلما بلغ عبيد الله قول عبد الملك وثنتمه إياه قال :

بشر الظبي والغراب بسعدى
مرحبا بالذى يقول الغراب
قال لى : إن خير سعدى قريب
قد أنى أن يكون منه اقتراب
قلت : أنى تكون سعدى قريبا
وعليها الحصون والأبواب
حبذا الريم ذو الوشاحين والخصر
الذى لا يناله إلا ثواب (١١)
إن القصر لو دخلت غزالا
مصفا موصدا عليه الحجاب
لا أشم الريحان إلا بعينى
كرما إنما يشم الكلاب

(٩) يريد عن خدامها .

(١٠) البواشك : القواطع .

(١١) الأغاني ج ١٧ ص ٢٧٢ .

قال الزبير : معنى قوله :

لا أئثم الريحان إلا بعينى كرما إنما يشم الكلاب

يعرض بعبد الملك ، لأنه كان متغير الفهم تؤذيه رائحته ، فكان فى يده أبدا ريحان ، أو تفاحة ، أو طيب يشمه •

ويروى صاحب الأغانى هذه القصة بطريقة أخرى يقول : حدثنا الزبير ، عن عمه : إن ابن القيس قال فى عبد العزيز بن مروان :

تلتفت الناس عند منبره إذا عهود البرية أنهدما

يعنى إذا مات عبد الملك ، لأن العهد كان إليه بعده • قال الزبير : فأخبرنى مصعب بن عثمان ، قال : لما بلغ عبد الملك هذا البيت أحفظه ، وقال : بغية الحجر ، وحينئذ قال : لقد دخل ابن قيس مدخلا ضيقا (١٢) ، وإن كنت آخذ على الخليفة خروجه عن النقد الموضوعى ، فخرج عن وقار الناقد ليعبر عن غضبه الشخصى بالشتيم للشاعر ، وبهذا يكون قد خرج عن الموضوعية فى نقده إلى الذاتية وهوى النفس •

موضوع المدح لابن قيس الرقيات فى عهد عبد الملك بن مروان :

إن نقد الأدب لم يكن مجرد سمر فى المجالس ، وحديث على الموائد كما يقال ، وإنما كان منبعثا من النفوس التواقية إلى سحر البيان وحلاوته ، ولصوقه بالطبع العربى على نحو يرتفع به عن مجرد السمر والترثرة على الموائد ، فقد ظهر فى حياة العرب لون من الترفه والميل للغناء ، فجنحت الطباع إلى الرقة وهفت النفوس إلى ظلال

الشعر على أنه مادة الغناء ورجع المعازف ، ثم هو من قبل ومن بعد
(ديوان العرب وسجل مفاخرهم) (١٣) •

ومما يؤكد لنا ذلك غضب عبد المالك حين أنشده ابن قيس الرقيات:

يا ماق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

ويقول له : أتقول في ما قلت من اعتدال التاج على جبيني كالذهب •

وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه انظاماء

ويعلل قدماء بن جعفر سبب الغضب • بأن المادح عدل به عن
بعض الفضائل النفسية التي هي العفة ، والعقل ، والعدل ، والشجاعة

إلى ما يليق بأوصاف الجسم من البهاء والزينة (١٤) •

ولكن أستاذنا الدكتور عبد اللاه محروس يرى : أن هناك سببا
آخر لغضب عبد الملك بن مروان غير الذي ذكره صاحب « نقد الشعر »
وقبل أن نذكر ما قاله الدكتور عبد اللاه يجدر بنا أن نفرغ ما في البيتين
من معنى ، فابن قيس الرقيات يقول عن مصعب : في وجهه اشراق
الايمان ، وضياء اليقين ، وانحصار ظلال الضلالة عنه ، وفوق تأييد من
الله ودفاع عنه وهي كما ترى صفات لا تصدر إلا من محب لمصعب ،
ولا يسيغها شاعر على ممدوحه إلا إذا كان مؤمنا بدعوته مناصرا له •

وحين نعرض لما قاله في عبد المالك نرى أنه مدحه با بهرج

(١٣) مذاهب النقد وقضاياه د/ عبد الرحمن عثمان ص ٢٤٦ •

• مطابع الاعلانات الشرقية ١٩٧٥ م •

(١٤) نقد الشعر ص ٨٥ ط البخانجي •

وانزينة والتحلى بالتاج الذى على جبينه يتلأأ كالذهب • وقد ذكرنا من قبل أن ابن قيس الرقيات لم يكن أهويا ، وذكرنا منذ قليل أنه كان مبغضا لبني أمية ، بل إنه عرّض بعبد الملك فى بعض شعره •

ولا شك أن عبد الملك - الرجل الذواق - لا شك أنه لمح فتور عاطفة الشاعر تجاهه ، فعبيد الله بن قيس كان فى معتقده أن بنى أمية قد اغتصبوا الملك ، ولكنه لا ذمهم وامتددهم بعد أن استقر لهم السلطان خوفا منهم ، وطلبا للأمان ، ولكن هوام بعيدا ، فلعل عبد الملك أحس بما فى كلمات ابن قيس من غز على حد تعبير أستاذنا الدكتور عبد الله محروس (١٥) كأن عبيد الله يرى فى بنى أمية حبا مستقرا فى نفوسهم للملك ، والسلطان والسيطرة هو كل همهم • فالملك والتاج والذهب هو ما يروونه الأمويون •

يقول الدكتور محروس (١٦) : « لعل هذا أو بعضه أغضب عبد الملك ، وإن كان بعض النقاد (المحدثين) يرى أن غضب عبد الملك كان لما فى المديح من النعومة والرقّة وجمال الوجوه صفات أقرب إلى الصفة المنسوبة ، وإلى التخنث منها إلى الرجولة المكتملة (١٧) •

وبعد هذا أقول : وإن كان هذا رأى وجيها ، إلا أنا نؤكد أن عمق النظرة عند عبد الملك ومعرفته لهوى الشاعر ، وميله السياسى ،

(١٥) النقد العربى القديم (دراسة وتحليل) ص ٢١٩ ط الأمانة

١٩٨٣ م •

(١٦) المرجع السابق •

(١٧) فن المدح أحمد أبو حافة ص ٣٤ •

يدفعنا إلى الإصرار على ما سبق أن وجهنا به بسبب نقده الحصيف كما
أرى وليس للغضب ، فليس عبد الملك بالناقد الضحل لأن النقد لا يكون
مخصصا ، وإنما ينبغى أن يكون موضوعيا وحتى يغضب لهذه الصفات
فحسب كما فى تعبير الدكتور عبد اللاه ، وإنما أعاظه أن يكون المناوىء
له فى الحكم شهاب من الله ، تجلت عن وجهه الظلماء •

ثم يستدل على أن عبد الملك لم تغضبه تلك الصفات فحسب
بدليل آخر يقول (١٨) : « لو كان غضب للصفات وحدها فما كانت هناك
ضرورة إلى البيت الذى مدح به مصعب ، فهو غاضب سواء مدح مصعبا
أو لم يمدح » •

ومن ذلك العرض يتبين لنا : أن عبد الملك أبعد فهما ، وأنقيد
بصرا بالشعر من النقد الذين وجهوا نقده لأننى أرى أن الخليفة لم
يغضب وإنما كان موضوعيا فى نقده حيث رأى أن المدح بالقيم الخلقية
والمعنوية ودلالة التصوير الشعرى عليها أقوى وأكثر تأثيرا من الصورة
الأدبية التى تهتم بالزخرف المادى والزينة الشكلية لذلك كانت
الموضوعية محل تقدير واهتمام من النقد الموضوعى •

لذلك يوجه الدكتور عبد الرحمن عثمان نقد عبد الملك توجيهها
آخر فيقول : « وكان من عيوب المدح عند الخليفة الأموى أن يعيدل
الشاعر عن الفضائل التى تتعلق بالنفس والعقل من العفة والشجاعة إلى
غيرها من أوصاف الجسم ولهذا لم يرتض من الشاعر ابن قيس الرقيات
قوله فى مدحه :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب (١٩)

مجالس عبد الملك مع جرير :

الحقيقة أن لعبد الملك مع جرير مجالس كثيرة أفادت النقد العربي أيما إفادة ، ودلت كلها على ذوق عبد الملك ، وحسه المرفه ، وبصره النافذ الذى كان يتمتع به من ذلك ما نقله لنا صاحب الأغاني :

قال عبد الملك أو الوليد ابنه لجرير : من أشعر الناس ؟ فقال ابن العشرين • قال فما رأيك فى ابنى أبى سلمى ؟ قال : كان شعرهما نبرا يا أمير المؤمنين • قال : فما تقول فى امرئ القيس ؟ قال : اتخذ الخبيث الشعر تلين وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلالة • قال فما تقول فى ذئ الرمة ؟ قال : قدر من طريف الشعر وغريمه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد • قال : فما تقول فى الأخطل ؟ قال : ما أخرج لسان ابن النصرانية ما فى صدره من الشعر حتى مات • قال : فما تقول فى الفرزدق ؟ قال : فى يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قدما قبض عليها • قال : فما أراك أبقيت لنفسك شيئا ؟ قال : بلى والله يا أمير المؤمنين ؟ إنى لادينة الشعر التى منها يخرج وإليها يعود نسبت فأطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنيت ، وأرملت فأعززت • ورجزت فأبحرت ، فأنا قلت ضروب الشعر كلها ، وكل واحد منهم قال نوعا منها • قال : صدقت (٢٠) •

وإن كنت أرى أن هذا النوع من المجالس الأدبية له قيمته النقدية

(١٩) مذاهب النقد وقضاياها ص ٢٤٩ •

(٢٠) الأغاني ج ٨ ص ٥٣ ، دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م •

ففيه حكم الشعراء فى محسن وغير محسن ، مجيد وغير مجيد عن طريق سؤال جرير عن رأيه فى شعر الشعراء الذين ذكرهم عبد الملك ، ومما يدل على علم عبد الملك بحال الشعراء وأشعارهم وسعة روايته وكثرة محفوظاته لشعراء العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصر الأموى ونقداً لشعرهم ، بالجودة والرداءة ، لأنه صدق على أحكام جرير على شعرهم وكان تصديقه عن بصيرة وذوق أدبى مرفه لا عن تقليد وتبعية .

مكانة جرير عند عبد الملك بعد مدحه الحجاج :

أوفد الحجاج ابنه محمد إلى عبد الملك وأوفد إليه جريراً معه ، ووصاه به وأمره بمسألة عبد الملك فى الاستماع منه ومعاونته عليه . فلما وردوا استأذن له محمد على عبد الملك ، فلم يأذن له ، وكان لا يسمع من شعراء مصر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيريّة . فلما استأذن له محمد على عبد الملك ولم يأذن له أعلمه أن أباه الحجاج يسأله فى أمره ويقول : إنه لم يكن موال لابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه وقال له محمد : يا أمير المؤمنين أن العرب تتحدث أن عبدك وسيفك الحجاج شفع فى شاعر قد لاذ به وجعله وسيلته ثم رددته ، فأذن له فدخل فاستأذنه فى الانشاد ، فقال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج ألسنت القائل :

من سد مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصوله الحجاج

إن الله لم ينصرنى بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته • أولست القائل :

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يتقن بغيره الأزواج

يا عاضى كذا وكذا من أمه ، والله لهممت أن أطير بك طيرة بطيئاً
سقوطها ، أخرج عنى فخرج بشر (٢١) •

فلما كان بعد ثلاث شفع إليه محمد لجريير وقال له : يا أمير
المؤمنين ، إنى أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعتى فى جريير ، فلما
أذنت له خاطبته بما أطار إليه منه وأثمت به عدوه ، ولو لم تأذن له
لكان خيراً له مما سمع • فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبد الحجاج
ولى فافعل ، فأذن له ، فاستأذنه فى الانشاد ، فقال : لا تتشدنى
إلا فى الحجاج فإنما أنت للحجاج خاصة فسأله أن ينشده مديحه فيه ،
فأبى وأقسم ألا ينشده إلا من قول الحجاج ، فأنشده وخرج بغير
جائزة ، فلما أزعف الرجل قال جريير لمحمد إن رحلت عن أمير المؤمنين ولم
يسمع منى ولم آخذ الجائزة سقطت آخر الدهر ، ولست بارحاً بابه أو
يأذن فى الانشاد • وأمسك عبد الملك عن الاذن له • فقال جريير :
ارحل أنت وأقيم أنا • فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جريير
واستأذنه له ، وسأله أن يسمع منه وقبل يده ورجله ، فأذن له • فدخل
فاستأذنه فى الانشاد • فأمسك عبد الملك فقال له محمد : أنشد
ويحك ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (٢٢)

(٢١) المرجع السابق الأغاني ج ٨ ص ٥٣ •

(٢٢) مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم قوم بالرواح

ويقال عندها سمعها عبد الملك قال له : بل فؤادك أنت •

فتبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن وما زلنا كذلك • ثم اعتمد
على ابن الزبير فقال (٢٣) :

دعوت المحدثين أبا حبيب جماحا هل شفيت من الجماح
وقد وجدوا الخليفة هيرزيا ألف العيص ليس من النواحي
قال : ثم أنشده إياها حتى أتى على ذكر زوجته فيهما فقتل :
تعزت أم حرزة ثم قالت رأبت الموردين ذوى اقحاح
فقال عبد الملك : هل ترويهما مائة لقحة ؟
فقال : إن لم يروها ذلك فلا أرواها الله •
فهو إليها — جعنى الله فداك يا أمير المؤمنين — من سبيل ؟

تأمر له بمائة لقحة وثمانين من الرعاء • وكانت بين يديه جانيات
من ذاهب فقال له جرير يا أمير المؤمنين تأمر لى بإحدىة منهم تكون
محلينا ؟ فضحك وندس إليه واحدة منهم بالقضيب وقال : خذها لا نفعك ،
فأخذها وقال : بلى والله يا أمير المؤمنين لينفعنى كل ما منحتنيه (٢٤) •
وتخرج من عنده •

قال : وقد ذكر جرير فى شعره فقال يمدح يزيد بن عبد الملك :
أعطوا هنيذة يحددها ثمانية ما فى عطائهم من ولا سرف
وأرى أن فى هذا المجلس دلالات كثيرة منها :

(٢٣) المرشد فى فهم أشعار العرب وصناعتهم ص ٥٣ .. دار الفكر

ط ثانية ١٩٧٠م وينظر ديوانه ص ٩٨ ، ٩٩ •

اهتمامه بالمجالس الأدبية واحاطته بما قيل من شعر فى الحجاج ،
نقدته نقدا موضوعيا ، ثم كبريائه وترفعه عن أن يطالب المدح لنفسه
على مثال ما قيل فى الحجاج ، وفى حث للشعراء على إجادة الشعر ،
وتنتقيحه ، واعمال الفكر بالعاطفة حتى يخرج مستويا جيدا قويا ♦

وهذا هو ما انتهى إليه جرير حين أخرج له مدحة بلغت الجودة
حتى أعجبته بما اشتملت عليه من جودة القيم الفنية والخلقية السامية ♦

جرير ينشد قصيدة بين يدي عبد الملك :

أنشد جرير عبد الملك قصيدته فبدأها بقوله :

أخف القطين فراخوا منك أو بكروا وأزعجتهم فى نؤى فى صرفها عبر
فقال عبد الملك : بل منك لا أم لك ♦ وتطير عبد الملك من قوله
فجعل الأخطال :

خف القطين فراخوا اليوم أو بكروا

وذكر أهل العلم أنه لما انتهى من القصيدة إلى قوله :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن القوطة الخبر
فقال عبد الملك : بل الله أيدنى (٢٥) ♦

(٢٤) راجع الأغاني ج ٨ ص ٦٨ وما بعدها .

(٢٥) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٥ .

ويعاق أستاذنا الدكتور عبد اللاه محروس على هذا النقد من
عبد الملك لجريير بقوله : فهذا كلام لا يصح أن يوجه إلى الخلفاء ، لأنه
خال من الأدب والتوقير فلا نخل فنى فيه ، لذلك جاء اعتراض
عبد الملك على البيت الأول (تطيرا) ، وعلى البيت الثانى رافضا أن
يكون لغير الله فضل عليه ومنة (٢٦) •

جرير والفرزدق فى مجلس عبد الملك

اجتمع فى مجلس عبد الملك جرير والفرزدق ، فقال الفرزدق :
النوار بنت مجاشع طالق ثلاثا إن لم أقل بيتا لا يستطيع ابن المراغة أن
ينقضه أبدا ولا يجد فى الزيادة عليه مذهباً ، فقال عبد الملك : ما هو ؟
قال :

فإنى أنا الموت الذى هو واقع بنفسك ، فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد باين الأتان بوائل من الموت أن الموت لا شك نائله
فأطرق جرير قليلا ، ثم قال : أم حرزة طالق منه ثلاثا إن لم أكن
انقضته وزدت عليه ، فقال عبد الملك : هات ، فقد طق أحدكم لا محالة ،
فأنشد :

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس
يكفيك بابن القين هل أنت نائله
أنا الدهر يفي الموت والدهر خيالد
فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله
فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس ، وطلق عليك (١) •

-
- (١) دراسات فى نقد الأدب العربى د/ بدوى طبانة ص ١٠٥
ط السابعة - مكتبة الانجلو المصرية •
(٢) هو ممام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن معبد
ابن سفيان بن مجاشع ابن دارم • وكان جده صعصعة بن ناجية عظيم
القدر فى الجاهلية ، واشترى ثلاثين مؤودة الى أن جاء الله عز وجل
بالاسلام ، فهن بنت لقيس بن عاصم المنقرى ثم أتى للنبي صلى الله
عليه وسلم • فأسلم الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٧٨ •

وأرى أن بصيرته النقدية أدركت أن الدهر يصارع الموت فى كل حين فالموت يقع فيه بين حين وآخر حتى قيام الساعة ، فالدهر أقوى من الموت ، يأتى بكل شخص لينهى به ، ويبدأ مع غيره وهكذا •

بينما الدهر ثابت خالد مع الناس ومع الموتى كل يوم إلى ما شاء الله عز وجل •

جرير والفرزدق والأخطل فى مجلس عبد الملك :

اجتمع فى مجلس عبد الملك جرير والفرزدق والأخطل ، فأحضر كيسا فيه خمسمائة دينار ، وقال لهم : ليقل كل منكم بيتا فى مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فبدر الفرزدق فقال (٢) :

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل :

فإن تك زق زاملة فإنى أنا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير :

أنا الموت الذى هو آت عليكم فليس لها رب منى نجاء

فقال عبد الملك : خذ الكيس ، فلعمري إن الكيس أتى على كل

شئ (٣) •

ونقول : أن هذا نقدر رجل بضير بمواقع الكلام ، حصيف بضروبه ، فالببت الأول يصف الفرزدق فيه نفسه بالقطران ، ويجعل الشعراء

(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى • د/ بدوى طبانة ص ١٠٥

ط ٧ مكتبة الأنجلو المصرية •

بالنسبة له جربى ، وفى البيت الثانى الذى قاله الأخطل شبه نفسه بالطاعون ، ثم يأتى جرير ليجعل نفسه الموت ، والموت لا شك آت على كل شىء كما قال الشاعر :

لا يغرن امرأ عيشه كل عيش صائر للزوال

وأرى أنه ترجع الجودة أيضا إلى روعة التصوير الأدبى فى بيت جرير لأنه بعث فى الموت تشخيصا وحيوية ، مع تأثير حركته القوية وأثره القوي فى تأثيره من آثار الخوف وشدته ، وغيرها من عناصر التصوير الأدبى وروافده القوية من التجسيد والتشخيص القوى حتى صار الموت ماردا قويا يهز النفوس ويأخذ بها أخذا لا يقوى عليه البشر (٤) •

جرير والأخطل على باب عبد الملك :

وقف جرير على باب عبد الملك والأخطل داخل عنده ، وقد كانا تهاجيا ولم ير أحدهما الآخر ، فلما استأذنوا عليه لجرير أذن له فدخل فسلم ثم جلس وقد عرفه الأخطل ، فلمع طرف جرير إلى الأخطل وقد رآه ينظر إليه نظرات شديدة فقال له : من أنت فقال : أنا الذى منعك نومك ، ونهضت قومك • فقال له جرير : ذلك أشقى لك كائنا من كنت ثم أتيا ، على عبد الملك بن مروان فقال : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ جعلنى الله فداءك ، فضحك ثم قال : هذا الأخطل يا أبا حرزة • فرد عليه بصره ثم قال : فلا حياك الله يا ابن النصرانية • أما منعك نومى ،

(٤) الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق ، د/ على عبد صبيح

ط أولى ١٩٩٨ ج ٢ ص ٤ المكتبة الأزهرية للتراث •

فقالو نمت عنك لكان خيرا لك • وأما تهضمك قومي فكيف نهضمهم وأنت ممن ضربت عليهم الذلة ، وباءوا بغضب من الله ، وأدى الجزية عن يد وهو صاغر • وكيف نهضم لا أم لك من فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأهور ومحكوم عليه لا حاكم • ثم أقبل على عبد الملك فقال :

أذن لي يا أمير المؤمنين في ابن النصرانية ، فقال : لا يجوز أن يكون ذلك بحضرتي (٥) •

عبد الملك يشتم جريرا بسبب بيت :

وروى صاحب الأغاني عن الأصمعي عن أبي عمرو قال : لما بلغ عبد الملك قول جرير :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا
قال عبد الملك : ما زاد ابن المراغة على أن جعاني شرطيا ، أما انه لو قال : لو شاء ساقكم إلى قطينا — لسقتهم إليه كما قال (٦) :

وفي الجمهرة : روى أن جرير قال في إحدى نقائضه :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا
فقال يزيد بن عبد الملك أو بعض أخوته :

أما ترون جهل جرير يقول لي ابن عم ، ثم يقول : (لو شئت ساقكم) ، أما لو قال : « لو شاء ساقكم » • لأصاب ولعل كنت أفعل ، ويقال إن الوليد علق على ذلك فقال :

(٥) الأغاني ج ٨ ص ٦٢ دار الكتب المصرية •

(٦) الأغاني ج ٨ ص ٦٠ دار الكتب المصرية •

« أما والله لو قال : لو شاء ساقكم لعلت ذلك ، ولكنه قال :
لو شئت فجعلنى شرطيا له » (٧) •

ونقد عبد الملك لجريز هنا يدلنا على أن عبد الملك كان قادرا
على التعقق فى فهم الشعر وتذوقه ، فلقد كان حقا على جريز أن يقول :
لو شاء ساقكم •

أما أنه يقول « لو شئت » فيجعل الخليفة طوع أمره ، فهذا
لا يصح فى المدح ولا يصح فى مجالس الخلفاء •

وفى رأى أن تعليق عبد الملك له دلالة عميقة على نقده الحصيف
فى إثارة التعبير بقوله : « ما زاد » دقابل قول الوايد : « لو قال »
فحكم عبد الملك أنق وأكثر حصافة وشمو لا للقيم الخلقية فى المدح
حيث أقره على القيم الأخرى الكثيرة من القوة والشجاعة والنفاز والعزم
وغيره ، لكن كان يطاب زيادة ، وهو العزم وحرية الإرادة * والتوجيه ،
وهذا لم يخطر ببال الوليد فعبر كقوليه « لو قال » •

مجالس عبد الملك مع شاعر بنى أمية الأخطل :

الأخطل شاعر بنى أمية الفذ ، ومع ذلك لم يسلم من نقذات
عبد الملك ، فقد كان فى كثير من الأوقات يرد قوله ولا يستحسنه وقد
أنشد يوما قوله فى الخير :

فإذا تعاوت الأكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

فأعجب به إلا أنه قال : أسمعت مثل هذا يا شعبي ؟ فقال :

(٧) جمهرة أشعار العرب ص ٥٦ ، والنقد العربى القديم (تاريخ

وفكر) ص ٢١ •

أشعر منه أعشى قيس حيث يقول (٨) :

من اللائي حملن عني المطايا كريح المسك تستل الزكاما (٩)
ويروى ابن قتيبة فيقول : دخل الأخطل على عبد الملك فقال :
يا أمير المؤمنين قد امتدحتك • فقال عبد الملك : إن كنت تشبهني بالحية
والأسد ، فلا حاجة لي بشعرك ، وإن كنت قلت مثل ما قالت أخت بني
الشريد ، يعني الخنساء فهات ، فقال :

وما بلغت كعب امرئ متطاول
به المجد إلا حيث ما نلت أطول (١٠)
وما بلغ المهدون في القول مدحة
ولو أكثروا إلا الذي فيك أفضل

فكان عبد الملك كره الصور المكررة من التشبيه بالأسد ، والحية ،
والبحر وغيرها مما اعتاد عليه الشعراء حين يمدحون ، ويوجه
عبد الملك شاعره الأخطل إلى المدح بالفضائل النفيسة والمكارم بقوله :
« إن كنت قلت مثل ما قالت أخت بني الشريد ، يعني الخنساء فهات »
وفهم الأخطل هذا الدرس من عبد الملك ، وكانت نتيجة فهمه هذه
الأمبيات التي ذكرها •

(٩) هو سعيد بن ضبيعة من قيس ، وكان أعمى ، ويكنى أبا بصير ،
كان أبوه قيس يدعى قتيل الجوع • وذلك انه كان في جبل فدخل غارا
فوقعت صخرة من ذلك الجبل ، فسدت فم الغار فمات فيه جوعا • الشعر
والشعراء ج ١ ص ٢٦٣ •

(١٠) الأدب الأموي د/ أبو الخشب ص ٢١٠ ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب •

وحين نتفحص هذه الأبيات نجد أن الأخطل قد أجمل كل الصفات
والمناقب في كلمات موجزة ، فهمة عبد الملك وصلت به في مرافىء
المجد إلى الدرجة التي لا يدركه فيها أحد مهما كان طموحه (١١) •

ثم أن المادحين ليعجزون عن الاحاطة بفضائله مهما أطنبوا أو
بالغوا فهي فوق الحصر ، وفوق الإدراك والتجديد •

وأرى أن رأى عبد الملك له أثره في النقد العربى بعد ذلك
وعند النقاد قديما وحديثا حيث تأثروا برأيه هنا بتقديم القيم الخلقية
والمعنوية على الصفات المادية والسمات المادية التي تبلى وتفتنى
بعكس نفاسة القيم الخلقية وخلودها •

وهذا لون جديد وقع عليه الشاعر بعد توجيهه من عبد الملك
النقاد (١٢) •

(١١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٩٠ •

(١٢) النقد العربى القديم - بتصرف يسير ص ٢٢٨ ، وينظر مناهج
البحث البلاغى فى الدراسات العربية ص ٣٠ ، د/ عبد السلام عبد الحفيظ
دار الفكر العربى •

الأخطل يدعى في مجلس عبد الملك أنه أشعر الناس

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج ، أنه لم يبق من لذة الدنيا شيء إلا وقد أصبت منه ولم يبق إلا مناقلة الحديث ، وقبلك عامر الشعبي فابعت به إليه فبعث الحجاج بالشعبي وأطراه في كتابه ، فخرج الشعبي حتى صار بباب عبد الملك ، فقال للحاجب استأذن لي : فقال الحاجب : ومن أنت رحمك الله ؟ قال : أنا عامر الشعبي ، فنهض الحاجب وأجلسه على كرسى ، وإذا بين يديه رجل أبيض الرأس واللحية على كرسى آخر ، فسلمت * غرد السلام وأومأ بقضيبه ، فقعده على يساره ثم أقبل على رجل عنده فقال : ويحك من أشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال الشعبي : فأظلم ما بيني وبين عبد الملك من البيت ولم أصبر أن قلت : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ الذي يزعم أنه أشعر الناس فعجب عبد الملك من عجلتي قبل أن يسألني ، فقال : هذا الأخطل ، قلت : بل أشعر منك يا أخطل الذي يقول :

هذا غلام حسن وجهه	مستقبل الخبر سريع النمام
للحارث الأكبر والحارث	الأعرج والأصغر خير الأنام
ثم لهند ولهند وقد	أسرع في الخيرات منهم أمام
سنة أبائهم ما هم	أكرم من يشرب صحب الغمام

قال : فرددتها حتى حفظها عبد الملك ، فقال الأخطل :

(١) النقد العربي القديم - بتصريف يسير ص ٢٢٨ ، وينظر مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية ص ٣٠ ، د/ عبد السلام عبد الحفيظ - دار الفكر العربي .

من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا الشعبي • قال الأخطل :
والانجيل ، هذا ما استعذت الله من شره ، صدق والله النابغة أشعر
منى ، فالتفت إلى عبد الملك فقال : ما تقول فى النابغة يا شعبي ؟
هت : قدمه عمر بن الخطاب فى غير موضع على جميع الشعراء (٢) •

وهذه القصة التى أوردناها فيها إشارة إلى تغيير نظام الخلافة
بما اقتبسوه من حكام الروم • حيث وضعوا الحجاب على أبوابهم لكى
لا يقتحم على الخليفة مجلسه أحد بغير إذن ، ولما فى قول عبد الملك
من أنه لم يبق من لذة الدنيا شىء إلا وقد أصبت منه •

فهذا تصريح بالرغد والنعيم الذى يعيش فى كنفه لاسيما الخلفاء
الذين أصبح لهم وقت فراغ لم يجدوا ما ينفقونه فيه إلا مناقلة
الحديث ، وهذا ينبىء عن تغيير الذوق العام فى الدولة ، وانتشار
مجالس النقد ومدارس الشعر • ثم إننا نجد الشعبي لما سمع قول
الأخطل : « أنا أشعر الناس » يقول : « فأطام ما بينى وبين عبد الملك » ،
وهذا دليل على أنه غير راض عن هذا الكلام ، حتى أنه لم يصبر
قبادر : من هذا الذى يدعى أنه أشعر الناس •

يقول الدكتور عبد اللاه محروس (٣) : « فالأثم الذى اجتاح
الشعبي يفرد رفضه الشديد لهذا الزعم حتى إنه لم يصبر ولم يراع

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٥ ، والنقد العربى القديم دراسة
وتحليل د/ محروس ص ٢٢٦ •

(٣) راجع النقد العربى القديم « دراسة وتحليل » ص ٢٢٦
وما بعدها مطبعة الأمانة ١٩٨٣ م •

أصول الكياسة فى التعامل مع الخلفاء ، فلم يصبر حتى يسأله الخليفة « وإنما دفعه توتره النفسى الذى سيطر عليه فسارع بالاستفسار عن هذا الدعى الذى تطاول فزعم لنفسه ما لا يمكن أن يبلغه من التفوق ، على كل الشعراء ثم ساق نموذجا للنابغة ، وهو شعر فى الفخر بالآباء والأجداد ، قاله صاحبه فى القديم فهو يلائم ما تواضع عليه القوم من تمجيد الأصول وهذا الانفعال المبالغ فيه ، والغضب الذى اجتاحه لمجرد أن شاعرا أهمل النابغة شاعره الأثير ، كل ذلك يفيد أن هذه المعانى فى الفخر ما زالت مرعية عند القوم فى عصرهم الذى يعيشونه •

وحين سئل الشعبى عن النابغة استعان برأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى تفضيله النابغة على غيرم من الشعراء وتقديره إياه على جميع الشعراء فى غير موضع ، كأنه يحاول بطريق خفى أن يخفى تعصبه غير أنه لم يوفق فى ذلك فقد بقى غضبه واندفاعه شاهدين على ذلك •

وصمت عبد الملك دليل على أنه يجاريه فى القول ولا يعترض على تفوق النابغة • ثم رضاه عن النموذج الذى قدمه الشعبى من شعر النابغة مع أن هناك شعرا له يفوق هذه الأبيات روعة وإبداعا ، وله قبيته الفنية الرائعة ، غير أن عبد الملك كان هوأه أيضا مع القديم (٤) • ثم نجد الأخطل لم يجد بدا من الاقرار بما اتفق عليه الناقدان ، بعد أن داخله الخوف والهلع من الشعبى الذى يعرفه حق المعرفة •

هنا قسم غير مرة أن النابغة أفضل الشعراء ، قد يكون ذلك مجازاة ، وقد يكون عن اقناع فأحوال الشاعر الأخطل لا ترجح أيهما • أما عبد الملك والشعبي فقد عرفنا نقدهما وألغنا إليه أنه نقد يتكئ على القديم ويحتفى به وليس معنى ذلك أن عبد الملك كان يلزم ترجيح القديم والانتصاف له وإنما كان يحب المجد المؤصل الذي يؤصل الصفة ، ويضرب بها أعماق الزمن ، ويأتي بها موصولة في جذور متنتلة إلى الأبناء والأحفاد ، حتى تتحول إلى طبع معتاد ، فهو إن قبل هذا المعنى في شعر النابغة أو غيره إلا أنه نفر من التشبيهات القديمة في المدح •

وأرى أن الاتجاه في نقد عبد الملك وهو الانتصاف لشعر القديم والحديث معا ، لأن العبرة في الجودة ، لا للقديم لقدمه ، ولا للحديث لمعاصرته ، وإنما العبرة بالجودة قديما أو معاصرا ، فكان هذا الاتجاه هتحا جديدا للنقاد في العصر العباسي الذي تركوا التعصب للقديم أو التحيز للمواد مما يؤكد أثر عبد الملك في النقد الأدبي بعد ذلك •

الحارث بن خالد المخزومي عند عبد الملك :

فلما ولي عبد الملك الخلافة عام الجماعة وفد عليه الحارث في دين كان عليه وذلك في خمس وسبعين وقال مصعب في خبره : بل حج عبد الملك في تلك السنة فلما انصرف رحل معه الحارث إلى دمشق ، فظهرت له منه جفوة ، وأقام ببابه شهرا لا يصل إليه ، فانصرف عنه فو قال فيه :

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها
وما بي وإن أقصيتني من ضراعة ولا أقفرت نفسي إلى من يضيرها

هذا البيت فى رواية ابن المرزبان وحده :

عطفت عليك النفس حتى كأنها يكفيك بؤس أو عليك نعيمها
وبلغ عبد الملك خبره وأنشد الشعر ، فأرسل إليه من رده من
طريقه ، فلما دخل عليه قال له : حار ، أخبرنى عنك ، هل رأيت عليك فى
المقام ببابى غضاضة أو فى قصدى دناءة ؟ قال : لا والله يا أمير
المؤمنين ، قال : فما حملك على ما قلت وفعلت قال : جفوة ظهرت لى ،
وكنيت حقيقا بغير هذا ، قال : فاختر ، فإن شئت أعطيتك مائة ألف
درهم ، أو قضيت دينك ، أو وليتك مكة سنة ، فولاه إياها فحج بالناس
وحجت عائشة بنت طلحة عامئذ .

وأرى أنه يدل هذا المجلس على اهتمامه بالشعر ونقده حيث كافأ
الشاعر على قراءه الشعر ، مع أن الشاعر لم يمدحه فيه ، وإنما دفعه
لكى يستمر فى قول الشعر ، لأن شعره هذه المرة كان سببا فى هذه
المكافأة وتلك العطية الكبيرة .

عبد الملك يمدح شعر عروة بن الورد (٥) :

يروى صاحب الأغانى عن عبد الله بن مسلم قال : قال عبد الملك
ابن مروان : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة
ابن الورد لقوله (٦) :

(٥) هو من بنى عبس وكان يلقب عروة الصعاليك الشعر والشعراء

ج ٢ ص ٦٧٩ .

(٦) الأغانى ج ٣ ص ٧٤ - دار الكتب المصرية ط اولى ١٩٣٦ م .

إني امرؤ عافى أنائى شركة وأنت امرؤ عافى أنائك واحد.
أتعزأ منى إن سمئت وأن ترى بجسمى الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو حراج الماء والماء بارد
وأرى أن فى هذا دلالة على اهتمام الخليفة برواة الشعر وحفظه
والاعجاب به ونقده وتوجيهه النقد إلى أن يصنعوا مثله صنعه •

عبد الملك يمدح عبده بن الطبيب (٧) :

إن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه أى المناديل أشرف ؟
فقال قائل منهم : مناديل مصر ، كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون :
مناديل أليمن كأنها موز الربيع • فقال عبد الملك : منديل أخى بنى سعد
عبده بن الطبيب قال :

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية وفار للقوم باللحم الراجيل (٨)
ورد وأشعر ما يؤتیه طابخه ما غير الغلى منه فهو مأكول
فمضى قمنا إلى جرد مسومة أعراضهن لأيدينا مناديل
وأرى أن فى هذا دلالة على خبرة الخليفة بالتجارب الشعرية
وصلتها بالحياة والناس مما يدل على تأثيرها القوي فى الأدب لأنه تعبیر
عن الحياة بما فيها •

(٧) الأغاني ج ٢١ ص ٢٦ ، ٢٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٢م والشاعر عبده بن بنى عبد شمس بن كعب ابن زيد فريش سعد
لجمالهم • الشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٣١ •
(٨) مراجيل : أصلها مراجل فزيت فيها الياء •

نقد عبد الملك للشماخ :

أنشد عبد الملك قول الشماخ فى عرابة بنت أوس (٩) :
إذا بلغتني وحملت رحلى عرابة فأشرقى بدم الوتين
فقال : بنست المكافأة كافأها ، حملت رحله وبلغته بغيته فجعل
مكافأتها نحرها •

نقد عبد الملك للأعشى :

أنشد أحد الرواة بيت الأعشى :
أتانى يؤمرنى فى الصبح ليلا ، فقلت له غادها قال عبد الملك :
أساء ، ألا قال هاتها (١٠) •

عبد الملك حين سمع شعر خدّاش (١١) :

الذى يقول فيه :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سفينة لولا الليل والحرم
زعموا أن عبد الملك (١٢) استنشد رجلا من قيس هذه الكلمة ،

(٩) الأغاني ج ٩ ص ١٦٩ - دار الكتب المصرية ١٩٣٦ • والشماخ
هو بن ضرار ومقل بن ضرار ، وهو من أوصف الشعراء للقوس والحر ،
الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٢٢ •

(١٠) دراسات فى نقد الأدب العربى - د/ طيانة ص ١٠٥ ط السابعة
مكتبة الأنجلو المصرية •

(١١) هو خدّاش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن صعصعة
وهو من شعراء قيس المجيدين فى الجاهلية الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٤٩ •

(١٢) الأغاني ج ٢٢ ص ٦٠ - الهيئة العامة للكتاب •

فجعل يحيد من قوله (سخينة) ، فقال عبد الملك : أنا قوم لم يزل
يعجبنا السخن ، فهان ، فلما فرغ قال : يا أخا قيس ، ما أرى صاحبك
زاد على التمنى والاستثناء •

وأرى أن في هذا دلالة على بلاغة الخليفة وذوقه الأدبي في
التمييز بين الأثر الجمالي لدلالة التمنى والاستثناء وأثرها في المعنى
والتصوير الأدبي •

أرطاة بن سهبة عند عبد الملك (١٣) :

دخل أرطاة بن سهبة على عبد الملك بن مروان ، فاستنشدته شيئاً
مما كان يناقض به شبيب بن البرصاء فأنشده :

أبى كان خير من أبيك وام يزل جنينا لا بائى وأنت جنبل
فقال له عبد الملك بن مروان : كذبت ، شبيب خير منك أبا • ثم
أنشده :

وما زلت خيراً منك مذ عض كارها برأسك عادى النجاد رسوب

فقال له عبد الملك : صدقت ، أنت في نفسك خير من شبيب ،
فعجب من عبد الملك من حضر ومن مفرقته مقادير الناس على بعدهم
مئة في بواديهم ، وكان الأمر على ما قاله : كان شبيب أشرف أبا من
أرطاة وكان أرطاة أشرف فعلاً ونفساً من شبيب (١٤) •

(١٣) هو من بنى مرة بن عوف بن سعد ، ويكنى أبا الوليد ، الشعر
والشعر ج ١ ص ٥٢٩ •

(١٤) راجع الأغاني ج ١٣ ص ١٨ وما بعدها - تحقيق لجنة من الأدباء
- دار الثقافة - بيروت لبنان •

أرطاة عند عبد الملك وقد أسن :

دخل أرطاة على عبد الملك بن مروان ، فقال له كيف حالك
يا أرطاة ؟ — وقد أسن — فقال : شعفت أوصالي ، وضاع مالي ، وقل
مني ما كنت أحب كثرت ، وكثر مني ما كنت أحب قلته • قال : فكيف أنت
في شعرك ؟ فقال :

والله يا أمير المؤمنين ما أضرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب
وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربع ، وعلى أنى القائل :

رأيت المرء تأكله الليالي	كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقى المنية حين تأتي	على نفس ابن آدم من تريد
واعلم أنها ستكر حتى	توفى نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك (١٥) ثم قال : ابل نوفي نذرها بك ويك ، ما لي
ولك ؟ فقال : لا ترع يا أمير المؤمنين فإنما عنيت نفسي — وكان أرطاة
يكنى أبا الوليد — فسكن عبد الملك • ثم استعبر باكيا وقال : أما والله
على ذلك لتلطن (١٦) بي :

(١٥) الأغاني ج ١٣ ص ٣٠ تحقيق لجنة من الأدباء — دار الثقافة

لبنان •

(١٦) لتزلن بي •

مجلس لعبد الملك مع العجير

وفد العجير السلولى على عبد الملك بن مروان ، فأقام بيبابه
شهورا لا يصل إليه لشغل عرض لعبد الملك ، ثم وصل إليه فلما مثل بين
يديه أنشده :

عظا سن ومنها نخل وكسير	ألا تارك أم الهيزى تبينت
فتى قبل عام الماء فهو كبير	وقالت تضاعلت الغداة ومن يكمن
به أبطن ألبيته وظهور	فقلت لها أن العجير تقلبت
له من عمائى النجوم نظير	فمنهن إذ لا هى على كل كوكب
به القوم يرجون الأذنين سور	ونزعى يكفى باب ملك كأنما
وللموت أرجاء بهن تدور	ويوم تبارى السن القوم فيهم
لعدن رقد بانث بهن فطور	لو أن الجبال الصم يسمعن وقعها
على جريه ، ذر علة ويسير	فرحت جوادا والجواد مثابر

فقال له : يا عجير ما مدحت إلا نفسك — واكتنا نعطيك أطول مثاهك
وأمر له بمائة من الابل يعطاها من صدقات بنى عامر فكتب له بها (١) .
وأرى أن فى ذلك دالتان :

الأولى : بصيرته الناقدة فى نقده لشعره ، فلم يصل إلى درجة
الجودة والتأثير على القراء .

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٦٤ ، ٦٥ ، تحقيق لجنة من الأدباء — دار

الثقافة بيروت — لبنان .

(٣١ — لغة أسيوط)

الثانية : أنه لما طال المقام خمدت عاطفته وضعفت فأراد أن يبعثه من جديد فى شعره فممنحه عطية •

وكشف عن سبب فتور العاطفة وضعفها فى أبياته السابقة يرجع إلى يأسه من طول المقام وعلى الشاعر أن يعيد النظر فى ذلك حتى يقوى شعره بسبب هذه المكافأة •

مجلس لعبد الملك مع عبد الله بن الحجاج :

ينقل لنا صاحب الأغاني أنه لما قتل عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله بن الحجاج من أصحابه وشيعته احتال حتى دخل على عبد الملك ابن مروان وهو يطعم الناس ، فدخل حجرة فقال له : ما لك يا هذا لا تأكل ؟ قال : لا أستحل أن أكل حتى تأذن لى • قال : إني قد أذنت الناس جميعا • قال : لم أعلم فأكل بأمرك قال : كل • فأكل ، وعبد الملك ينظر إليه ويعجب من فعله ، فلما أكل الناس وجلس عبد الملك فى مجلسه ، وجلس خواصه بين يديه ، وتفرق الناس ، جاء عبد الله بن الحجاج فوقف بين يديه ، ثم استأذنه فى الانشاد فأذن له ، فأنشده (٢) :

أبلغ أمير المؤمنين غاننى مما لقيت من الحوادث مومع
مع الفرار فجئت نحوك هاربا جيش يجرو ومعنبت بتلمع
فقال عبد الملك : وما خوفك لا أم لك ، لولا أنك مريب ، فقال
عبد الله :

(٢) الأغاني أبى الفرج ج ١٣ ص ١٦٠ - تحقيق لجنة من الادباء -

إن البلاد على وهى عريضة وعرت مذهبها وسعر المطلاع

فقال له عبد الملك (٣) : ذلك بما كسبت يداك ، وما الله بظلام
للمالعين : فقال عبد الله :

كنا تنحلنا البصائر مرة	وإليك إذ عمى البصائر ترجع
إن الذى يعصيك منا بعدها	من دينه وحياته متودع
إنى رضاك ولا أعود لمثلها	وأطيع أمرك ما أمرت وأسمع
أعطى نصيحتى الخليفة نافعا	وخزامة الأتف الوقود فأتبع

فقال له عبد الملك هذا لا نقبله منك إلا بعد المعرفة بك وبذنبك ،
فإذا عرفت الحوبة قبلنا التوبة • فقال عبد الله :

فلقد وطئت بنى سعيد وطأة وابن الزبير فعرشه متضعع
فقال عبد الملك : لله الحمد والمنة على ذلك • فقال عبد الله :

ما زلت تضرب منكبا عن منكب	تعلو وتسفل غيركم ما يرفع
ووطئتم فى الحرب حتى أصبحوا	حدثا يكوس وغابرا يتجمع
فحوى خلافتهم ولم يظلم بها	القوم قرم بنى قصى الأتزع
لا يستوى حاوى نجوم أمثال	والبدر متبلجا إذا ما يطلع
وضعت أمية واسطين لقومهم	ووضعت وسطهم فنعم الموضع
بيت أبى العاص بناه بريرة	على المشارف غرة ما يدفع

فقال له عبد الملك (٤) : إن نزرينك عن نفسك لتربيتى ، فأى
العسقة أنت ؟ وماذا تريد ؟ فقال :

(٣) المرجع السابق ج ١٣ ص ١٦١ •

(٤) المصدر السابق ج ١٣ ص ١٦٢ •

حربت أصيبينى بدأ رسلتها وإليك بعد معاد هاما ترجع
وأرى الذى يرجو تراث محمد أفلت نجومهم ونجمك يسطع

فقال عبد الملك : ذلك جزاء أعداء الله • فقال عبد الله بن الحجاج :

فأنعش أصيبينى الآلاء كأنهم خجل تدرج بالشرية جوع

فقال عبد الملك : لا أنعشهم الله ، وأجاع أكبادهم ، ولا أبقي
وليدا من نسلهم ، فإنهم نسل كافر فاجر لا يبالى ما صنع • فقال
عبد الله :

مال لهم مما يضمن جمعته يوم القلب فحيز عنهم أجمع

فقال عبد الملك : لعلك أخذته من غير حله ، وأنفقته فى غير حقه
وأرصدت به لشاقة أولياء الله ، وأعددت له لمعاونة أعدائه ، فنزعه منك إذ
استظهرت به على معصية الله • فقال عبد الله :

أدنوا لترحمنى وتجير فماقتى فأراك تدفعنى تبين مدفع

فتبسم عبد الملك ، وقال له : إلى النار ، فمن أنت الآن (٥) ؟
قال : أنا عبد الله بن الحجاج الثعلبى وقد وطئت دارك وأكلت طعامك ،
وأنشدتك فإن قتلتنى بعد ذلك فأنت وما تراه ، وأنت بما عليك فى
هذا عارف • ثم عاد إلى انشاده ، فقال :

ضلاق عتاب الملبسين وفضلهم عنى فألبسنى بثوبك أوسع

فنبذ عبد الملك إليه رداء كان على كتفه وقال البسه ، لا لبست ،
فالتحف به ثم قال له عبد الملك : أولى لك والله ، لقد طاولتك طمعا في
أن يقرم بعض هؤلاء فيقتلك ، فأبى الله ذلك فلا تجاورني في بلد ،
وانصرف آمنا ، قم حيث شئت •

وأرى أن في هذا دلالات كثيرة على أن الخليفة عبد الملك كان
ناقدا موضوعيا يتسع صدره لأعدائه الذين تربصوا ، ليسمع منهم شعرا
وينقده من حيث قيمه الخلقية والفنية ، ويجاورهم في ذلك ليسمع رأيهم
ويترتب عليه أحكامه النقدية ، ثم يدفعهم بعد ذلك لاثراء الحركة
الأدبية بشعره فيتنافس مع غيره من الشعراء والنقاد في أجادته ، وذلك
بأنه قد منح عبد الله بن الحجاج أعز ما عنده ، وهو رداء ليكون صونا
وحفظا بعد أن يكون صديقا ومجالسا للخليفة فلا يتعرض للأذى من
أعدائه بنى أمية ولا من غيرهم •

ومن مجالس عبد الملك الفكاهية :

ما ذكره صاحب الأغاني قال : نصب عبد الملك بن مروان الموائد
يطعم الناس ، فجلس رجل من أهل العراق على بعض تلك الموائد • فنظر
إليه خادم لعبد الملك فأنكره ، فقال له : أعراقى أنت ؟ قال : نعم ،
قال : أنت جاسوس ، قال : لا ، قال : بلى • قال ويحك ، دعنى أتهنأ
بزاد أمير المؤمنين ، ولا تنقصنى به ، ثم إن عبد الملك وقف على تلك
المائدة فقال من القائل :

إذا الأرطى توسد أبردية خدود جوار بالرمك عين -

وما معناه ؟ من أجاب فيه أجزناه ؟ والخادم يسمع — فقال
العراقى للخادم : أتحب أن أشرح لك قائله وفيم قاله ؟ قال : نعم قال :

يقول عدى بن زيد فى صفة البطيخ الرمس • فقال ذلك الخادم • فضحك
عبد الملك حتى سقط ، فقال له الخادم : أخطأت أم أصبت ؟ قال : بل
أخطأت • فقال : يا أمير المؤمنين هذا العراقى فعل الله به وفعل لقننيه •
فقال : أى الرجال هو ؟ فأراه إياه • فعاد إليه عبد الملك وقال : أنت
لقننته هذا ؟ قال : نعم • قال : أفخطأ لقننته أم صوابا ؟ قال : بل خطأ •
قال : ولم ؟ قال : لانى كنت متحرما بمائدتك • فقال لى كيت وكيت ،
فأردت أن أكفه عنى وأضحك • قال : فكيف الصواب ؟ قال : يقوله
الشماع بن ضرار القطفانى فى صفة البقر الوحشية قد جزأت بالرطب
عن الماء • قال : صدقت وأجازه ، ثم قال له : ما حاجتك ؟

قال : تتحى هذا عن بابك فإنه يشينه (٦) •

هذه النقداات التى كانت من عبد الملك بن مروان للشعراء
الاقتصرونا هنا ، نظرا لضيق الوقتى ، ولعل هذا البحث يكون جذرة لبحوث
قادمة تكون أكثر استقصاءا اجالس عبد الملك الأدبية والنقئية وأدق
دراسة لها ، وأحسن أفادة ، ويكون دليلا على سموخ العقل العربى
وعظمة تراثه النقدى •

والله ولى التوفيق ••

خاتمة

وبعد .. فقد تناولنا فى هذا البحث المجالس الأدبية والنقدية التى كان يعقدها عبد الملك بن مروان مع الشعراء والأدباء .

وكان من الطبيعى أن نبدأ بتمهيد تحدثت فيه عن الدولة الأموية، وتحدثت عن مكانة الأدب فى العصر الأموى ومدى اهتمام الخلفاء والأمراء بالأدب والشعر منه خاصة .

وذكرت أن النقد الأموى كان محكوماً بالذوق العربى الخالص من كل شائبة .

وذكرت أن من يعرض لتاريخ بنى أمية فى حياتهم العقلية والعلمية يعرف أنهم كانوا يهتمون بالشعر ويشجعون الشعراء لعلمهم بما للأدب من وظائف اجتماعية وأخلاقية .

وجد « إن هذا العصر سوق المريد فى البصرة والذى كان يقوم بمثل ما كان يقوم به سوق عكاظ فى الجاهلية ، ثم نظرت إلى مجالس النقد وذكرت أن النقد فى هذه الفترة دخل فى طور جديد نستطيع أن نسميه « دور المجالس » الذى ظل طوال هذا العصر وما تبعه من عصور ، ومن ثم كان لدراسة هذه المجالس فى هذا العصر بالذات أهمية كبرى لدى دارس النقد العربى وذكرت عدة أسباب لتلك الأهمية فى موضعها .

وكان من الضرورى فى هذا البحث أن نكشف النقاب عن السيرة الذاتية لناقدنا والعوامل التى أثرت فى شخصيته النقدية ، ثم من

أخلاق المجالس التي عشنا فيها مع عبد الملك بن مروان ناقدا ظهرت
لنا ملامح الرجل النقدية التي تتم عنها رسوخ قدمه في هذا المصان
وكيف أنه كان أدبيا ذواقا ، وناقدا بصيرا ، وكيف كان بينه روح
المنافسة بين الشعراء في مجالسه ويستحثهم على إخراج المعنى في
أكمل صورة •

ونرى أنه نصح الشعراء بالبعد عن الأوصاف الحسية حين
يمدحون والاتجاه إلى الصفات الخلقية التي هي أبقي وأثر - حين
يقول « يا معشر الشعراء تشبهوننا تارة بالأسد وتارة بالبحر وتارة
بالجبل الوعر ألا قلتم كما قالت أخت بنى الشريد :

وما بلغت كعب امرئ متطاوّل به المجد إلا حيث ما نلت أطول

كان لعبد الملك بن مروان نقداً ومواقف مع الشعراء من
أخلاقها نستطيع أن نقول - دون أدنى شك - أن عبد الملك أثرى
النقد العربي بذوقه وحسه وأفاد الباحثون من لمساته النقدية فرحم الله
عبد الملك بن مروان أميرا للمؤمنين وناقدا بين الناقدين وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - الأدب الأموى صور رائعة من البيان العربى د/ إبراهيم أبو الخشب - الهيئة المصرية العامة للكتاب •
- ٢ - الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق د/ على على صبح - ثلاثة أجزاء - المكتبة الأزهرية للتراث سنة ١٩٩٨م •
- ٣ - الأغانى أبو الفرج الأصفهانى - دار الكتب المصرية ١٩٣٦م - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م تحقيق لجنة من الأدباء - دار الثقافة - لبنان •
- ٤ - البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر • د/ على على صبح - المكتبة الأزهرية للتراث ج ٢ عام ١٩٩٨م - القاهرة •
- ٥ - بناء القصيدة العربية فى النقد العربى القديم د/ يوسف حسين بكار - دار الجيل - لبنان •
- ٦ - البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار الجيل - لبنان •
- ٧ - تاريخ الخلفاء الراشدين - الإمام السيوطى •
- ٨ - تاريخ الخلفاء الراشدين والدولة الأموية - هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة بكية اللغة العربية بأسيوط سنة ١٩٨٧م
- ٩ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب - طه أحمد إبراهيم - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م •

- ١٠ — تراثنا فى النقد الأدبى بين الأصالة والتجديد — د/ عبد الحميد هلال مطبعة الأمانة ١٩٨٢م •
- ١١ — التراث النقدى عند العرب رؤية تاريخية وفكرية — د/ عبد السلام عبد الحفيظ — مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٧م •
- ١٢ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى — بيروت ١٩٦٣م •
- ١٣ — حياة الشعر فى الكوفة — د/ يوسف خليف — الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٨م •
- ١٤ — الحيوان للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون •
- ١٥ — دراسات فى نقد الأدب العربى — بدوى طبانة — مكتبة الأنجلو المصرية •
- ١٦ — زعماء الإسلام — د/ حسن إبراهيم حسن — مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٠م •
- ١٧ — الشعر والشعراء لابن قتيبة — تحقيق أحمد محمد شاكر •
- ١٨ — الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى — محمد مصطفى — هدارة — دار المعارف المصرية ١٩٨١م •
- ١٩ — الصورة الأدبية تاريخ ونقد د/ على على صبح — الطبى — القاهرة ١٩٨٤م •
- ٢٠ — طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجهمى — تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر •
- ٢١ — عمر المأمون — أحمد فريد رفاعى •

- ٢٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه - لجنة التأليف والنشر •
- ٢٣ - عيون الأخبار لابن قتيبة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م •
- ٢٤ - فجر الإسلام الأستاذ أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية •
- ٢٥ - فن المديح - أحمد أبو حافة •
- ٢٦ - مذاهب النقد وقضاياها - د/ عبد الرحمن عثمان - مطابع الاعلانات الشرقية ١٩٧٥م •
- ٢٧ - المعجم الوسيط - المجمع اللغوى بالقاهرة •
- ٢٨ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعاتها - عبد الله الطيب - ط ثانية - دار الفكر •
- ٢٩ - موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية - د/ أحمد محمد شلبى ط سابعة ١٩٨٤م •
- ٣٠ - الموشح للمرزبانى - دار نهضة مصر •
- ٣١ - مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية أ.د/ عبد السلام عبد الحفيظ - دار الفكر العربى •
- ٣٢ - النقد الأدبى عند العرب - تاريخ وفكر أ.د/ عبد السلام عبد الحفيظ •
- ٣٣ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر •
- ٣٤ - نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوى أ.د/ عبد السلام عبد الحفيظ - دار الفكر العربى ١٩٧٨م •

٣٥ - النقد العربي القديم - دراسة وتحليل د/ عبد اللاه محمود

حسن مطبعة الأمانة ١٩٨٣م •

٣٦ - نقد النشر - قدامة بن جعفر •

د • صابر أحمد عبد الحافظ إبراهيم

مدرس الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية بأسسيوط